
الأدب العالمي للناشئين
نداء البرية
جاك لندن

نِدَاءُ البَرِّيَّةِ

نِدَاءُ البَرِّيَّةِ

تأليف
جاك لندن

ترجمة
ندى أحمد قاسم

مراجعة
هبة نجيب مغربي



The Call of the Wild

Jack London

نِدَاءُ البَرِّيَّةِ

جاك لندن

الطبعة الأولى ٢٠١٤م
رقم إيداع ٢٠١٣/١٦٢٣١
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

لندن، جاك.
نداء البرية/تأليف جاك لندن.
تدمك: ٤ ٣٨٩ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١-القصص الإنجليزية

٨٢٣

رسم الغلاف: إيمان إبراهيم، تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

الفصل الأول

الِاخْتِطَافُ

لَمْ يَقْرَأْ باك الْجَرَائِدَ، وَإِلَّا كَانَ عَلِمَ بِالْمُشْكِلَاتِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُ، لَيْسَ هُوَ فَحَسْبُ وَإِنَّمَا كُلُّ كَلْبٍ مَفْتُولِ الْعَضَلَاتِ يَتَمَتَّعُ بِشَعْرٍ طَوِيلٍ وَكَثِيفٍ مِنْ مِنْطَقَةِ بوجيت ساوند وَحَتَّى سان دييجو. فَقَبْلَ فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، عَثَرَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي أَقْصَى الشَّمَالِ فِي الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ الْمُظْلِمِ عَلَى مَعْدِنٍ أَصْفَرَ يُسَاوِي الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ، وَالْآنَ آلَافُ الرِّجَالِ يَتَوَافَدُونَ إِلَى الشَّمَالِ سَعْيًا وَرَاءَ هَذَا الْمَعْدِنِ الَّذِي يُسَمَّى بِالذَّهَبِ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ يَحْتَاجُونَ إِلَى كِلَابٍ؛ كِلَابٍ مِنْ عَيِّنَةِ باك — كِلَابٍ قَوِيَّةٍ مَفْتُولَةِ الْعَضَلَاتِ وَذَاتِ شَعْرٍ كَثِيفٍ يَحْمِيهَا مِنَ الْبَرْدِ.

كَانَ باك يَعِيشُ بِمَنْزِلٍ كَبِيرٍ فِي وَادِي سانتا كلارا الَّذِي تَغْمُرُهُ الشَّمْسُ بِنُورِهَا بِكاليفورنيا. وَكَانَ مَنْزِلُ الْقَاضِي ميلر الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ عَلَى بُعْدِ مَسَافَةٍ قَصِيرَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ، يَتَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ جُزْئِيًّا بَيْنَ الْأَشْجَارِ الَّتِي يُمْكِنُ مِنْ خِلَالِهَا رُؤْيَةُ أَجْزَاءٍ مِنَ الشُّرْفَةِ الْوَاسِعَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ مِنْ جَوَانِبِهِ الْأَرْبَعَةِ. كَانَتْ هُنَاكَ مَمَرَّاتٌ مُتَعَرِّجَةٌ مُغَطَّاةٌ بِالْحَصَى تَمُرُّ بَيْنَ الْمُرُوجِ الْخَضْرَاءِ تَقُودُ إِلَى الْمَنْزِلِ، وَخَلْفَ الْمَنْزِلِ كَانَتْ هُنَاكَ إِسْطَبْلَاتٌ شَاسِعَةٌ يَعْمَلُ بِهَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ سَائِسِي الْخَيْلِ وَالْفِتْيَانِ، وَتَصْطَفُّ أَكْوَاخُ الْخَدَمِ الْمَكْسُوَّةُ بِالنَّبَاتَاتِ الْمُعْتَرِشَةِ، وَأَشْجَارِ الْعِنَبِ الطَّوِيلَةِ وَالْمَرَاعِي الْخَضْرَاءِ وَالْبَسَاتِينِ وَحَدَائِقِ التُّوتِ. كَمَا كَانَ هُنَاكَ بِئْرٌ كَبِيرٌ وَخَزَّانُ مِيَاهٍ أَسْمَنْتِيٌّ ضَخْمٌ يَسْتَحِمُّ فِيهِ أَبْنَاءُ الْقَاضِي ميلر فِي الصَّبَاحِ وَيَهْرُبُونَ إِلَيْهِ مِنْ حَرِّ فَتْرَةِ مَا بَعْدَ الظَّهِيرَةِ.

وَكَانَ باكُ هُوَ السَّيِّدُ فِي هَذِهِ الضَّيْعَةِ الْكَبِيرَةِ، فَهُنَا وُلِدَ وَعَاشَ لِأَرْبَعِ سَنَوَاتٍ. بِالطَّبْعِ كَانَتْ هُنَاكَ كِلَابٌ أُخْرَى، فَفِي مَكَانٍ كَبِيرٍ مِثْلِ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ آخَرُونَ غَيْرُهُ، لَكِنَّ هَذِهِ الْكِلَابَ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَزْنٌ؛ فَهِيَ تَجِيءُ وَتَذْهَبُ، وَتَسْكُنُ إِمَّا فِي وَجَارِ الْكِلَابِ الْمُزْدَحِمَةِ أَوْ تَعِيشُ فِي هُدُوءٍ فِي أَحَدِ أَرْكَانِ الْمَنْزِلِ، مِثْلَ توتس — كَلْبِ البج الْيَابَانِيِّ — أَوْ يسابل — الْكَلْبِ الْمِكْسِيكِيِّ الْأَصْلَعِ — تِلْكَ الْكَائِنَاتُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي لَمْ تَخْرُجْ قَطُّ مِنْ بَابِ الْبَيْتِ وَلَمْ تَطَأْ أَقْدَامُهَا الْأَرْضَ. وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، كَانَتْ هُنَاكَ أَيْضًا كِلَابُ فوكس تيرير — عَلَى الْأَقَلِّ عِشْرُونَ مِنْهَا — الَّتِي كَانَتْ تَنْبَحُ مُهَدِّدَةً توتس وَيسابل وَهُمَا يَنْظُرَانِ إِلَيْهَا مِنَ النَّوَافِذِ بَيْنَمَا تَحْمِيهَا فِرْقَةٌ مِنَ الْخَادِمَاتِ الْمُسَلَّحَاتِ بِالْمَكَانِسِ وَالْمَمَاسِحِ.

لَكِنَّ باكَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْكِلَابِ الَّتِي تَمْكُثُ فِي الْمَنْزِلِ أَوْ تَعِيشُ فِي وَجَارِ الْكِلَابِ؛ بَلْ كَانَ يَعْتَنِي بِالْمَكَانِ كُلِّهِ. فَكَانَ يَغْطِسُ بِخَزَّانِ السِّبَاحَةِ أَوْ يَذْهَبُ إِلَى الصَّيْدِ مَعَ أَوْلَادِ الْقَاضِي، وَيُرَافِقُ ابْنَتَيْهِ مولي وَأليس فِي نُزْهَاتِهِمَا الطَّوِيلَةِ حَوْلَ الضَّيْعَةِ عِنْدَ الْغُرُوبِ أَوْ فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ، وَفِي لَيَالِي الشِّتَاءِ كَانَ يَرْقُدُ عِنْدَ قَدَمَيِ الْقَاضِي أَمَامَ نَارِ الْمِدْفَأَةِ فِي غُرْفَةِ الْقِرَاءَةِ. وَكَانَ باك يَحْمِلُ أَحْفَادَ الْقَاضِي ميلر عَلَى ظَهْرِهِ، وَيُدَحْرِجُهُمْ عَلَى الْحَشَائِشِ، وَيَحْرُسُهُمْ فِي مُغَامَرَاتِهِمُ الْبَرِّيَّةِ نَحْوَ النَّافُورَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي فِنَاءِ الْإِسْطَبْلَاتِ، وَحَتَّى إِذَا امْتَدَّ بِهِمُ السَّيْرُ إِلَى مَا وَرَاءَ ذَلِكَ؛ إِلَى حَيْثُ تُوجَدُ إِسْطَبْلَاتُ الْخَيْلِ وَتَنْمُو أَشْجَارُ التُّوتِ. كَانَ يَمْشِي مِثْلَ الْمَلِكِ عِنْدَمَا يَمُرُّ مِنْ أَمَامِ كِلَابِ الْوَجَارِ وَيَتَجَاهَلُ توتس وَيسابل تَمَامًا؛ فَهُوَ الْمَلِكُ: الْمَلِكُ الْمُتَوَّجُ فَوْقَ رُءُوسِ كُلِّ مَا يَحْبُو أَوْ يَزْحَفُ أَوْ يَطِيرُ دَاخِلَ مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر، بِمَا فِي ذَلِكَ الْبَشَرُ.

كَانَ إيلمو وَالِدُ باك — وَهُوَ كَلْبٌ ضَخْمٌ مِنْ فَصِيلَةِ سان برنارد — صَدِيقَ الْقَاضِي الْمُقَرَّبَ، وَقَدْ حَاوَلَ باك أَنْ يَحْذُوَ حَذْوَ وَالِدِهِ. لَمْ يَكُنْ باك كَبِيرَ الْحَجْمِ؛ فَوَزْنُهُ كَانَ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ رَطْلًا فَقَطْ لِأَنَّ وَالِدَتَهُ — شيب — كَانَتْ مِنْ فَصِيلَةِ كِلَابِ شيبرد الْاسْكُتْلَنْدِيَّةِ الْأَصْغَرِ حَجْمًا. وَلَكِنَّ هَذَا الْوَزْنَ إِضَافَةً إِلَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا باك مِنَ الْحَيَاةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي يَحْيَاهَا وَاحْتِرَامِ الْجَمِيعِ الَّذِي يَحْظَى بِهِ؛ كَانَا يَكْفِيَانِهِ لِكَيْ يَتَصَرَّفَ حَقًّا وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ. فَطَوَالَ سَنَوَاتِ حَيَاتِهِ الْأَرْبَعِ وَمُنْذُ أَنْ كَانَ جروًا، كَانَ باك يَفْتَخِرُ بِنَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّهُ صَارَ مَغْرُورًا بَعْضَ الشَّيْءِ، كَمَا يَحْدُثُ أَحْيَانًا لِنُبَلَاءِ الْمَنَاطِقِ الرِّيفِيَّةِ. وَلَكِنَّهُ حَافَظَ

عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَمَا أَبَى أَنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ كَلْبٍ مَنْزِلِيٍّ مُدَلَّلٍ، فَالصَّيْدُ وَالرَّكْضُ فِي الْهَوَاءِ الطَّلْقِ أَبْعَدَا عَنْ جَسَدِهِ الشُّحُومَ وَزَادَا مِنْ قُوَّةِ عَضَلَاتِهِ، وَكَانَ باك أَيْضًا يُحِبُّ اللَّعِبَ وَالسِّبَاحَةَ.

هَكَذَا كَانَ باك فِي خَرِيفِ عَامِ ١٨٩٧ عِنْدَمَا اجْتَاحَ هَوَسُ الْبَحْثِ عَنِ الذَّهَبِ الَّذِي اكْتُشِفَ فِي مِنْطَقَةِ كلونديك عُقُولَ الرِّجَالِ مِنْ جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ، وَجَعَلَهُمْ يَتَدَفَّقُونَ عَلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ الْمُتَجَمِّدِ. وَلَكِنَّ باك لَمْ يَكُنْ يَقْرَأُ الْجَرَائِدَ لِيَعْرِفَ هَذَا الْخَبَرَ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَيْضًا أَنَّ مانويل الْبُسْتَانِيَّ كَانَ يُعَانِي مُشْكِلَةً خَطِيرَةً؛ أَلَا وَهِيَ حُبُّهُ لِلْمُقَامَرَةِ.

وَفِي لَيْلَةٍ شَهِدَتْ عَلَى خِيَانَةِ مانويل، كَانَ الْقَاضِي فِي اجْتِمَاعٍ، وَكَانَ الْأَوْلَادُ مَشْغُولِينَ فَلَمْ يَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مانويل وَهُوَ يَصْطَحِبُ باك مَعَهُ إِلَى الْبُسْتَانِ فِيمَا كَانَ باك يَظُنُّ أَنَّهَا نُزْهَةٌ. وَفِيمَا عَدَا رَجُلٍ آخَرَ، لَمْ يَرَهُمَا أَحَدٌ عِنْدَمَا وَصَلَا إِلَى مَحَطَّةِ قِطَارَاتٍ صَغِيرَةٍ تُدْعَى كوليدج بارك. تَحَدَّثَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى مانويل وَأَعْطَاهُ نُقُودًا.

قَالَ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ بِصَوْتٍ أَجَشَّ لِمانويل: «رُبَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَلُفَّ الْبِضَاعَةَ قَبْلَ أَنْ تُسَلِّمَهَا.» حِينَهَا ثَبَّتَ مانويل حَبْلًا قَوِيًّا تَحْتَ الطَّوْقِ الَّذِي يَرْتَدِيهِ باك حَوْلَ رَقَبَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ مانويل: «إِذَا ثَنَيْتَهُ سَوْفَ يَشْعُرُ بِاخْتِنَاقٍ شَدِيدٍ.» فَأَوْمَأَ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ بِرَأْسِهِ.

تَقَبَّلَ باك الْحَبْلَ بِكِبْرِيَاءٍ وَهُدُوءٍ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرُقْ لَهُ بِالطَّبْعِ، وَلَكِنَّهُ تَعَلَّمَ أَنْ يَثِقَ بِالرِّجَالِ الَّذِينَ يَعْرِفُهُمْ، وَيَحْتَرِمَهُمْ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْرِفُ هُوَ. وَلَكِنْ حِينَمَا انْتَقَلَ طَرَفُ الْحَبْلِ إِلَى يَدَيِ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ الَّذِي بَدَأَ يَسْحَبُهُ، أَخَذَ باك يُزَمْجِرُ فِي غَضَبٍ، وَلَكِنَّهُ فُوجِئَ بِالْحَبْلِ يَضِيقُ عَلَى رَقَبَتِهِ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَتَنَفَّسُ بِصُعُوبَةٍ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يُعَامَلْ فِي حَيَاتِهِ قَطُّ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ الْكَرِيهِ، وَلَمْ يَصِلْ غَضَبُهُ أَبَدًا إِلَى هَذَا الْمَدَى، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْرُبَ. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ، تَوَقَّفَ قِطَارٌ فِي الْمَحَطَّةِ وَأَلْقَى بِهِ الرَّجُلَانِ فِي عَرَبَةِ الْأَمْتِعَةِ.

كَانَ أَوَّلُ مَا أَدْرَكَهُ باك بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ لِسَانَهُ يُؤْلِمُهُ وَأَنَّهُ يَتَأَرْجَحُ دَاخِلَ عَرَبَةٍ مَا. وَسُرْعَانَ مَا عَلِمَ باك أَيْنَ هُوَ مِنْ صَافِرَةِ الْقِطَارِ الْغَلِيظَةِ. لَقَدْ سَافَرَ كَثِيرًا مَعَ الْقَاضِي لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ كَيْفَ هُوَ شُعُورُ الرُّكُوبِ فِي عَرَبَةِ الْأَمْتِعَةِ. فَفَتَحَ باك عَيْنَيْهِ وَتَمَلَّكَ مِنْهُ الشُّعُورُ بِالْغَضَبِ وَالْحَنَقِ كَأَنَّهُ مَلِكٌ مَخْطُوفٌ. وَرَأَى أَمَامَهُ الرَّجُلَ الَّذِي أَخَذَهُ وَبَدَأَ يَنْبَحُ بِشَرَاسَةٍ فِي وَجْهِهِ، بَلْ وَنَجَحَ فِي أَنْ يَعَضَّ إِحْدَى يَدَيْهِ.

أَحْدَثَ نُبَاحُ باك جَلَبَةً عَالِيَةً حَتَّى إِنَّ أَحَدَ الرِّجَالِ الْمَسْئُولِينَ عَنِ الْأَمْتِعَةِ أَتَى لِيَرَى مَاذَا يَحْدُثُ. وَعِنْدَمَا رَأَى أَثَرَ الْعَضَّةِ عَلَى يَدِ الرَّجُلِ سَأَلَهُ عَمَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَكْرُوهٌ قَدْ أَلَمَّ بِالْكَلْبِ، فَكَذَبَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ: «نَعَمْ، هَذَا الْكَلْبُ يُعَانِي مِنْ نَوْبَاتِ السُّعَارِ، وَأَنَا آخُذُهُ إِلَى صَاحِبِهِ فِي سان فرانسيسكو فَهُنَاكَ طَبِيبٌ بَيْطَرِيٌّ جَيِّدٌ يُمْكِنُ أَنْ يُعَالِجَهُ.»

بَعْدَ أَنْ وَصَلَ الْقِطَارُ أَخِيرًا إِلَى سان فرانسيسكو، أَخَذَ الرَّجُلُ باك إِلَى مَخْزَنٍ صَغِيرٍ خَلْفَ إِحْدَى الْحَانَاتِ بِالْقُرْبِ مِنْ ضَفَّةِ النَّهْرِ.

قَالَ الرَّجُلُ لِعَامِلِ الْحَانَةِ مُتَذَمِّرًا: «كُلُّ مَا أَحْصُلُ عَلَيْهِ مُقَابِلَ هَذَا هُوَ خَمْسُونَ دُولَارًا.» وَأَضَافَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى يَدِهِ الْمَجْرُوحَةِ: «وَلَمْ أَكُنْ لِأَفْعَلَهَا وَلَوْ حَصَلْتُ عَلَى أَلْفِ دُولَارٍ نَقْدًا، فَهَذَا الْكَلْبُ شَرِسٌ إِلَى أَقْصَى مَدَى.»

أَجَابَهُ عَامِلُ الْحَانَةِ: «كُفَّ عَنِ الشَّكْوَى، لَقَدْ حَصَلْتَ عَلَى الْمَبْلَغِ الَّذِي اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ ثُمَّ إِنَّكَ لَنْ تَرَى هَذَا الْكَلْبَ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْمَكَانِ الَّذِي سَيَذْهَبُ إِلَيْهِ، هَذَا مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِدَكَ بِهِ.»

تَمْتَمَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَفْرُكُ يَدَهُ الْمَجْرُوحَةَ مَرَّةً أُخْرَى: «أَتَمَنَّى ذَلِكَ، فَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّنِي لَنْ أَنْسَى مَنْ هُمْ عَلَى شَاكِلَةِ هَذَا الْكَلْبِ سَرِيعًا.»

مَعَ أَنَّ باك كَانَ مُتْعَبًا، ظَلَّ يُحَاوِلُ الْمُقَاوَمَةَ، وَلَكِنْ فِي النِّهَايَةِ أَلْقَى بِهِ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى الْأَرْضِ وَأَمْسَكُوهُ ثُمَّ خَلَعُوا الطَّوْقَ النُّحَاسِيَّ الثَّقِيلَ وَالْحَبْلَ مِنْ حَوْلِ رَقَبَتِهِ وَدَفَعُوا بِهِ دَاخِلَ صُنْدُوقٍ خَشَبِيٍّ يُشْبِهُ الْقَفَصَ.

أَمْضَى باك بَقِيَّةَ اللَّيْلَةِ دَاخِلَ هَذَا الصُّنْدُوقِ، لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ مَا يَعْنِيهِ كُلُّ هَذَا. مَاذَا يُرِيدُ مِنْهُ هَؤُلَاءِ الرِّجَالُ الْغُرَبَاءُ؟ وَلِمَاذَا يَحْبِسُونَهُ دَاخِلَ هَذَا الصُّنْدُوقِ الضَّيِّقِ؟ لَمْ يَكُنْ باك يَعْرِفُ السَّبَبَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ هُنَاكَ الْمَزِيدَ مِنَ الْمَتَاعِبِ فِي انْتِظَارِهِ.

كُلَّمَا أَحْدَثَ بَابُ الْمَخْزَنِ صَرِيرًا وَهُوَ يَنْفَتِحُ كَانَ باك يَهُبُّ وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ عَلَى أَمَلِ أَنْ يَرَى الْقَاضِيَ أَوْ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلَادِ عَلَى الْأَقَلِّ. وَلَكِنَّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ يَرَى وَجْهَ عَامِلِ الْحَانَةِ الضَّخْمِ الَّذِي كَانَ يَتَفَقَّدُهُ عَلَى ضَوْءِ شَمْعَةٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَتَحَوَّلُ ذَلِكَ النُّبَاحُ الْفَرِحُ الَّذِي يُولَدُ فِي حَلْقِ باك إِلَى زَمْجَرَةٍ شَرِسَةٍ.

وَلَكِنَّ عَامِلَ الْحَانَةِ تَرَكَهُ وَحْدَهُ وَلَمْ يُزْعِجْهُ، وَفِي الصَّبَاحِ دَخَلَ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ جُدُدٍ وَحَمَلُوا الصُّنْدُوقَ. لَقَدْ أَدْرَكَ باك مِنْ هَيْئَاتِهِمُ الَّتِي تُوحِي بِالشَّرِّ وَمَلَابِسِهِمُ الْقَذِرَةِ الرَّثَّةِ

أَنَّهُمْ لَيْسُوا إِلَّا مَزِيدًا مِنَ الرِّجَالِ الْأَشْرَارِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَنْبَحَ وَيُزَمْجِرَ فِي وُجُوهِهِمْ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَضْحَكُونَ وَيَنْغُزُونَهُ بِالْعِصِيِّ الَّتِي كَانَ باك يُمْسِكُ بِهَا بَيْنَ أَسْنَانِهِ حَتَّى أَدْرَكَ أَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ سِوَى مُضَايَقَتِهِ. فَاسْتَلْقَى فِي هُدُوءٍ وَتَرَكَهُمْ يَرْفَعُونَ الصُّنْدُوقَ إِلَى عَرَبَةٍ. ثُمَّ بَدَأَ باك وَهُوَ بِدَاخِلِ صُنْدُوقِهِ رِحْلَةً أُخْرَى طَوِيلَةً؛ فَبَعْدَ رِحْلَةِ الْعَرَبَةِ، نُقِلَ الصُّنْدُوقُ — مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الصَّنَادِيقِ وَالطُّرُودِ الْأُخْرَى — إِلَى عَبَّارَةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى شَاحِنَةٍ أَخَذَتْهُ إِلَى مَحطَّةِ قِطَارَاتٍ كَبِيرَةٍ، وَأَخِيرًا اسْتَقَرَّ دَاخِلَ عَرَبَةِ قِطَارٍ سَرِيعٍ. لَمْ يَكُنْ باك يَعْرِفُ مَا يَنْتَظِرُهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ مُقَاوَمَةَ شُعُورِهِ بِأَنَّهُ لَنْ يَرَى مَنْزِلَهُ الْقَدِيمَ لِوَقْتٍ طَوِيلٍ.

ظَلَّتْ عَرَبَةُ الْقِطَارِ السَّرِيعِ تَسِيرُ عَلَى الْقُضْبَانِ لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ لَمْ يَأْكُلْ باك خِلَالَهُمَا أَوْ يَشْرَبْ. وَفِي غَمْرَةِ غَضَبِهِ، كَانَ يَنْبَحُ وَيُزَمْجِرُ فِي وَجْهِ كُلِّ مَنْ يَرَاهُ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ حِينَمَا كَانَ يُلْقِي بِنَفْسِهِ عَلَى قُضْبَانِ الصُّنْدُوقِ فِي غَضَبٍ، كَانَ بَعْضُ الْأَشْخَاصِ يَضْحَكُونَ وَيَغِيظُونَهُ، فَكَانُوا يُزَمْجِرُونَ وَيَنْبَحُونَ فِي وَجْهِهِ وَكَأَنَّهُمْ كِلَابٌ، أَوْ يَمُوءُونَ مِثْلَ الْقِطَطِ، أَوْ يُرَفْرِفُونَ بِأَذْرُعِهِمْ مِثْلَ الطُّيُورِ. وَكَانَ باك يَعْرِفُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ سَخِيفٌ، وَلَكِنَّ غَضَبَهُ ظَلَّ يَتَزَايَدُ. لَمْ يَكُنْ باك مُنْزَعِجًا مِنْ عَدَمِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، وَلَكِنَّ قِلَّةَ الْمَاءِ جَعَلَتْ لِسَانَهُ جَافًّا وَحَلْقَهُ مُحْتَقِنًا.

شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ أَسْعَدَ باك وَهُوَ أَنَّ الْحَبْلَ قَدْ أُزِيلَ أَخِيرًا مِنْ حَوْلِ رَقَبَتِهِ، وَعَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى أَلَّا يَسْمَحَ لِأَيِّ شَخْصٍ مَرَّةً أُخْرَى أَنْ يَلُفَّ حَبْلًا حَوْلَ رَقَبَتِهِ. احْمَرَّتْ عَيْنَا باك، وَكَانَ غَاضِبًا جِدًّا لِدَرَجَةِ أَنَّ الْقَاضِيَ ميلر نَفْسَهُ لَوْ رَآهُ مَا كَانَ لِيَعْرِفَهُ. وَكُلُّ مَنْ رَأَى باك فِي الْقِطَارِ سَعِدَ جِدًّا عِنْدَمَا نَزَلَ الصُّنْدُوقُ الَّذِي يَحْمِلُهُ أَخِيرًا مِنَ الْقِطَارِ فِي سياتل.

حَمَلَ أَرْبَعَةُ رِجَالٍ الصُّنْدُوقَ الْخَشَبِيَّ بِحَذَرٍ مِنَ الْعَرَبَةِ إِلَى فِنَاءٍ خَلْفِيٍّ صَغِيرٍ مُحَاطٍ بِجُدْرَانٍ عَالِيَةٍ، وَخَرَجَ رَجُلٌ بَدِينٌ يَرْتَدِي سُتْرَةً حَمْرَاءَ وَوَقَّعَ بِطَاقَةَ الِاسْتِلَامِ لِلسَّائِقِ، ثُمَّ أَعْطَاهُ السَّائِقُ أَيْضًا خِطَابًا مِنْ عَامِلِ الْحَانَةِ فِي سان فرانسيسكو وَالَّذِي قَرَأَهُ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ جَيِّدًا. أَدْرَكَ باك أَنَّ هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي سَيَكُونُ مُعَذِّبَهُ التَّالِيَ، فَانْدَفَعَ بِشَرَاسَةٍ فِي اتِّجَاهِ قُضْبَانِ الصُّنْدُوقِ. ضَحِكَ الرَّجُلُ ضِحْكَةً مَقِيتَةً وَأَحْضَرَ بَلْطَةً وَهِرَاوَةً.

سَأَلَهُ السَّائِقُ: «أَنْتَ لَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ الصُّنْدُوقِ الْآنَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ وَهُوَ يَضْرِبُ الصُّنْدُوقَ الْخَشَبِيَّ بِالْبَلْطَةِ: «بِالطَّبْعِ سَأَفْعَلُ.»

هَرَبَ الرِّجَالُ الْأَرْبَعَةُ الَّذِينَ أَحْضَرُوا الصُّنْدُوقَ إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ أَعْلَى أَحَدِ الْجُدْرَانِ تَحَسُّبًا مِنْ أَنْ يَهْرُبَ باك.

مَعَ أَوَّلِ صَوْتٍ لِلصُّنْدُوقِ وَهُوَ يُفتَحُ، انْدَفَعَ باك إِلَى الْأَمَامِ وَغَرَسَ أَسْنَانَهُ فِي الْقُضْبَانِ الْخَشَبِيَّةِ وَأَخَذَ يَجْذِبُهَا مِنْ مَكَانِهَا. أَخَذَ باك يَزُومُ وَيُزَمْجِرُ، فَقَدْ كَانَ يَتُوقُ لِلْخُرُوجِ مِنْ هَذَا الصُّنْدُوقِ قَدْرَ مَا كَانَ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ عَازِمًا عَلَى إِخْرَاجِهِ.

قَالَ الرَّجُلُ عِنْدَمَا أَحْدَثَ فَتْحَةً كَبِيرَةً بِمَا يَكْفِي لِكَيْ يَعْبُرَ باك مِنْهَا: «هَيَّا، أَيُّهَا الشَّيْطَانُ الأَحْمَرُ الْعَيْنَيْنِ.» وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ أَلْقَى بِالْبَلْطَةِ وَنَقَلَ الْهِرَاوَةَ إِلَى يَدِهِ الْيُمْنَى.

وَقَدْ كَانَ باك حَقًّا شَيْطَانًا أَحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ؛ إِذِ اسْتَجْمَعَ قُوَاهُ لِكَيْ يَقْفِزَ عَلَى الرَّجُلِ وَقَدِ انْتَصَبَ شَعْرُهُ، وَامْتَلَأَ فَمُهُ بِاللُّعَابِ، وَلَمَعَتْ عَيْنَاهُ الْحَمْرَاوَانِ بِلَوْنِ الدَّمِ فِي جُنُونٍ. وَأَلْقَى باك جَسَدَهُ الْغَاضِبَ الَّذِي يَبْلُغُ وَزْنُهُ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ رَطْلًا عَلَى الرَّجُلِ بِكُلِّ الْغَضَبِ الْحَبِيسِ الَّذِي ظَلَّ يَتَرَاكَمُ بِدَاخِلِهِ طَوَالَ يَوْمَيْنِ بِلَيْلَتَيْهِمَا حُرِمَ فِيهِمَا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا ارْتَفَعَ جَسَدُهُ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ وَفِي مُنْتَصَفِ طَرِيقِهِ فِي الْهَوَاءِ مُتَّجِهًا لِكَيْ يَعَضَّ الرَّجُلَ تَلَقَّى ضَرْبَةً أَوْقَفَتْ حَرَكَتَهُ، وَالْتَفَّ جَسَدُهُ وَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ عَلَى ظَهْرِهِ وَجَانِبِهِ.

لَمْ يَتَلَقَّ باك فِي حَيَاتِهِ ضَرْبَةً بِالْهِرَاوَةِ، بَلْ إِنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَا حَدَثَ لَهُ بِالضَّبْطِ. لَكِنَّهُ عَادَ وَاقِفًا عَلَى أَقْدَامِهِ وَهُوَ يُطْلِقُ زَمْجَرَةً مَا بِهَا مِنْ صُرَاخٍ أَكْثَرُ مِمَّا بِهَا مِنْ نُبَاحٍ، وَقَفَزَ فِي الْهَوَاءِ مَرَّةً أُخْرَى. وَمَرَّةً أُخْرَى تَلَقَّى ضَرْبَةً عَلَى جَسَدِهِ وَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ.

صَاحَ أَحَدُ الرِّجَالِ الْمَاكِثِينَ فَوْقَ الْجِدَارِ فِي فَرَحٍ: «إِنَّهُ مَاهِرٌ جِدًّا فِي تَرْوِيضِ الْكِلَابِ، هَذَا مَا قُلْتُهُ.»

قَالَ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ وَهُوَ يُرَبِّتُ بِرِفْقٍ عَلَى رَأْسِ باك: «الْكَلْبُ اسْمُهُ باك، هَكَذَا يَقُولُ الْخِطَابُ الَّذِي أَرْسَلَهُ عَامِلُ الْحَانَةِ فِي سان فرانسيسكو.»

ثُمَّ اسْتَدَارَ إِلَى الْكَلْبِ الَّذِي لَا تَزَالُ الدَّهْشَةُ تَعْتَرِيهِ وَقَالَ بِصَوْتٍ لَطِيفٍ: «حَسَنًا يَا باك، لَقَدْ تَعَارَكْنَا قَلِيلًا يَا صَغِيرِي، وَأَفْضَلُ مَا يُمْكِنُنَا فِعْلُهُ هُوَ أَنْ نَضَعَ مَا حَدَثَ وَرَاءَ ظُهُورِنَا. لَقَدْ عَرَفْتَ مَكَانَتَكَ وَأَنَا أَعْرِفُ مَكَانَتِي، كُنْ كَلْبًا حَسَنَ السُّلُوكِ وَسَوْفَ تَسِيرُ كُلُّ الْأُمُورِ عَلَى مَا يُرَامُ، أَمَّا إِذَا أَسَأْتَ التَّصَرُّفَ فَسَوْفَ تُوقِعُ نَفْسَكَ فِي مُشْكِلَةٍ، أَفَهِمْتَ؟»

عِنْدَمَا أَحْضَرَ الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَاءَ إِلَى باك، شَرِبَ باك بِنَهَمٍ، ثُمَّ الْتَهَمَ وَجْبَةً كَبِيرَةً مِنَ اللَّحْمِ النَّيِّءِ تَنَاوَلَهَا قِطْعَةً بِقِطْعَةٍ مِنْ يَدِ الرَّجُلِ.

وَمَعَ أَنَّ باك كَانَ سَعِيدًا بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، لَمْ يَكُنْ هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ قَبِلَ مَا فَعَلَهُ الرَّجُلُ بِهِ. كَانَ باك يَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ خَسِرَ هَذِهِ الْجَوْلَةَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَسْلِمْ. فَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ الاِعْتِمَادُ عَلَى قُوَّتِهِ فَقَطْ لِكَيْ يَرْبَحَ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى طُرُقٍ لِلنَّجَاةِ بِنَفْسِهِ لَا تَعْتَمِدُ عَلَى عَضَلَاتِهِ فَحَسْبُ، بَلْ عَلَى ذَكَائِهِ وَمَكْرِهِ أَيْضًا. لَقَدْ عَلَّمَهُ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ دَرْسًا لَنْ يَنْسَاهُ أَبَدًا.

الفصل الثاني

الثُّلُوجُ

مَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ أَتَتْ كِلَابٌ أُخْرَى، بَعْضُهَا فِي صَنَادِيقَ خَشَبِيَّةٍ وَالْبَعْضُ الْآخَرُ تَلْتَفُّ حَوْلَ رِقَابِهَا حِبَالٌ. بَعَضُ الْكِلَابِ كَانَتْ هَادِئَةً وَبَعْضُهَا كَانَ يَنْبَحُ وَيُزَمْجِرُ مِثْلَمَا كَانَ باك يَفْعَلُ عِنْدَمَا أَتَى. وَلَكِنَّ باك رَآهَا جَمِيعًا وَهِيَ تُذْعِنُ لِسَيْطَرَةِ الرَّجُلِ ذِي السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ.

وَمِنْ حِينٍ لِآخَرَ، كَانَ هُنَاكَ رِجَالٌ آخَرُونَ يَأْتُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يُقِيمُ فِيهِ باك وَالْكِلَابُ الْأُخْرَى وَيَتَحَدَّثُونَ إِلَى الرَّجُلِ ذِي السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ بِاهْتِمَامٍ وَيَسْأَلُونَهُ عَنِ الْكِلَابِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَعَنْ قُوَّتِهَا وَأَسْعَارِهَا. ثُمَّ يَأْخُذُ هَؤُلَاءِ الْغُرَبَاءُ وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ مِنَ الْكِلَابِ مَعَهُمْ. كَانَ باك يَتَعَجَّبُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ فَلَمْ يَعُدْ أَيٌّ مِنْهُمْ أَبَدًا. كَانَ يَشْعُرُ بِالْخَوْفِ لِأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَاذَا يَحْدُثُ لِلْكِلَابِ بَعْدَ ذَهَابِهَا، وَكَانَتِ السَّعَادَةُ تَغْمُرُهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ لَا يُبَاعُ فِيهَا.

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ اخْتَارَ رَجُلٌ يُدْعَى بيرو باك لِيَشْتَرِيَهُ. وَكَانَ بيرو يَعْمَلُ لَدَى الْحُكُومَةِ الْكَنَدِيَّةِ، وَكَانَتْ وَظِيفَتُهُ هِيَ تَوْصِيلُ الْبَرِيدِ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، وَكَانَ يَعْرِفُ جَيِّدًا أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الْكِلَابِ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَدَاءِ هَذِهِ الْمَهَمَّةِ، وَكَانَ مُسْتَعِدًّا لِأَنْ يَدْفَعَ بِسَخَاءٍ مُقَابِلَ حُصُولِهِ عَلَى هَذَا النَّوْعِ. فَرِحَ بيرو جِدًّا عِنْدَمَا رَأَى باك وَسَأَلَ الرَّجُلَ ذَا السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ عَنْ ثَمَنِهِ.

قَالَ الرَّجُلُ ذُو السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ: «ثَلَاثُمِائَةِ دُولَارٍ، وَهَذَا سِعْرٌ خَاصٌّ لَكَ أَنْتَ يَا بيرو لِأَنَّكَ عَمِيلٌ مُمَيَّزٌ.» ثُمَّ ابْتَسَمَ وَاسْتَطْرَدَ قَائِلًا: «لَقَدْ أَبْقَيْتُ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ أَجْلِكَ خِصِّيصًا. اسْمُهُ باك وَهُوَ كَلْبٌ شَرِسٌ، إِنَّهُ نَوْعُ الْكِلَابِ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِإِنْجَازِ الْعَمَلِ.»

ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ بيرو ابْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ، فَبِالنِّسْبَةِ لِارْتِفَاعِ أَسْعَارِ الْكِلَابِ مُؤَخَّرًا بِسَبَبِ هَوَسِ الْبَحْثِ عَنِ الذَّهَبِ، كَانَ السِّعْرُ الَّذِي طَلَبَهُ الرَّجُلُ مُقَابِلَ كَلْبٍ مُتَمَيِّزٍ مِثْلِ باك مَعْقُولًا. وَكَانَ بيرو يَفْهَمُ فِي الْكِلَابِ جَيِّدًا بِفَضْلِ خِبْرَتِهِ الطَّوِيلَةِ، وَعِنْدَمَا نَظَرَ إِلَى باك عَرَفَ أَنَّهُ كَلْبٌ نَادِرٌ وَفَرِيدٌ مِنْ نَوْعِهِ، بَلْ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «قَدْ لَا أَجِدُ مِثْلَهُ.»

رَأَى باك بيرو وَهُوَ يَدْفَعُ النُّقُودَ لِلرَّجُلِ ذِي السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ، ثُمَّ قَادَهُ هُوَ وَكَلْبَةً أُخْرَى تُدْعَى كيرلي — وَهِيَ كَلْبَةٌ لَطِيفَةٌ مِنْ فَصِيلَةِ نيوفاوندلاند — إِلَى الْخَارِجِ. تَرَكَ باك وَكيرلي سياتل عَلَى ظَهْرِ سَفِينَةٍ تُدْعَى «ناروال»، وَهُنَاكَ سَلَّمَهُمَا بيرو إِلَى رَجُلٍ ضَخْمِ الْجُثَّةِ يُدْعَى فرانسوا. لَمْ يَكُنْ باك يَعْرِفُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَبْلُ، وَرَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يُحِبَّهُمَا، اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَعَامَلَ مَعَهُمَا بِاحْتِرَامٍ؛ فَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ بيرو وَفرانسوا كَانَا عَادِلَيْنِ وَهَادِئَيْنِ، وَأَنَّهُمَا يَعْرِفَانِ الْكَثِيرَ عَنْ كَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْكِلَابِ.

وَهُمَا يَتَنَقَّلَانِ بَيْنَ أَسْطُحِ ناروال، قَابَلَ باك وَكيرلي كَلْبَيْنِ آخَرَيْنِ. أَحَدُهُمَا كَانَ كَبِيرًا وَلَوْنُهُ أَبْيَضُ مِثْلَ الثَّلْجِ، وَكَانَ يَبْدُو وَدُودًا وَلَكِنَّ ابْتِسَامَتَهُ كَانَتْ تُوحِي بِأَنَّهُ يُفَكِّرُ فِي خُدْعَةٍ دَنِيئَةٍ. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ سَرَقَ بَعْضًا مِنْ طَعَامِ باك، وَبَيْنَمَا كَانَ باك يُطَارِدُهُ، اسْتَطَاعَ فرانسوا أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الطَّعَامَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ باك وَأَعَادَهُ إِلَى باك.

وَكَانَ الْكَلْبُ الْآخَرُ الَّذِي تَعَرَّفَ عَلَيْهِ باك وَكيرلي لَا يُحِبُّ الِاخْتِلَاطَ بِالْآخَرِينَ. وَكَانَ يُدْعَى ديف، وَكُلُّ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ هُوَ الْأَكْلُ وَالنَّوْمُ وَالتَّثَاؤُبُ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ، وَلَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ بِأَيِّ شَيْءٍ، حَتَّى عِنْدَمَا كَانَتِ السَّفِينَةُ تُوَاجِهُ أَمْوَاجًا مُتَلَاطِمَةً وَتَتَمَايَلُ مِنْ جَانِبٍ إِلَى آخَرَ. وَعِنْدَمَا كَانَ الْقَلَقُ وَالْخَوْفُ يَعْتَرِيَانِ باك وَكيرلي، كَانَ ديف يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَقَطْ، وَيَبْدُو عَلَيْهِ الِانْزِعَاجُ، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى باك وَكيرلي وَيَتَثَاءَبُ وَيَعُودُ لِلنَّوْمِ مَرَّةً أُخْرَى.

مَرَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَاحَظَ باك أَنَّ الْجَوَّ يُصْبِحُ أَكْثَرَ بُرُودَةً مَعَ مُرُورِ كُلِّ يَوْمٍ. وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، كَانَتِ السَّفِينَةُ هَادِئَةً وَشَعَرَتْ كُلُّ الْكِلَابِ بِالْإِثَارَةِ؛ إِذْ إِنَّهَا كَانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ تَغْيِيرًا سَيَحْدُثُ. وَضَعَ فرانسوا الْحِبَالَ فِي أَطْوَاقِهَا جَمِيعًا وَأَحْضَرَهَا إِلَى السَّطْحِ. وَمَعَ أَوَّلِ خُطْوَةٍ لِباك عَلَى الْأَرْضِ الْبَارِدَةِ، غَاصَتْ قَدَمَاهُ فِي مَادَّةٍ بَيْضَاءَ هَشَّةٍ تُشْبِهُ الْوَحْلَ كَثِيرًا. قَفَزَ إِلَى الْوَرَاءِ مُطْلِقًا صَوْتًا عَالِيًا مِنْ أَنْفِهِ، كَانَ الْمَزِيدُ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ الْبَيْضَاءِ يَتَسَاقَطُ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَزَّ باك جَسَدَهُ، وَلَكِنْ سَقَطَ عَلَيْهِ الْمَزِيدُ مِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ،

تَشَمَّمَهَا باك فِي فُضُولٍ، ثُمَّ لَعَقَ بَعْضًا مِنْهَا بِلِسَانِهِ، فَلَسَعَتْهُ قَلِيلًا ثُمَّ اخْتَفَتْ فَجْأَةً، فَحَيَّرَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا وَحَاوَلَ مَرَّةً أُخْرَى وَلَكِنْ حَدَثَ الشَّيْءُ نَفْسُهُ. ضَحِكَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى وَالْأَشْخَاصُ الَّذِينَ كَانُوا يُشَاهِدُونَهُ، وَشَعَرَ باك بِالْإِحْرَاجِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفِ السَّبَبَ، فَهَذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ يَرَى فِيهَا الثُّلُوجَ.

لَمْ يَكُنِ الثَّلْجُ هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي كَانَ عَلَى باك أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَعْتَادُ عَلَيْهِ وَيَتَعَامَلُ مَعَهُ بِمَهَارَةٍ، فَقَدْ كَانَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ لِباك فِي شَاطِئِ ديا أَشْبَهَ بِالْكَابُوسِ؛ فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ صَدْمَةٌ وَمُفَاجَأَةٌ جَدِيدَةٌ كُلَّ سَاعَةٍ. وَكَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ قَدِ انْتُزِعَ مِنْ مُجْتَمَعٍ مُتَحَضِّرٍ وَأُلْقِيَ بِهِ فِي عَالَمٍ بُدَائِيٍّ. فَهُنَا لَمْ يَكُنْ يَحْيَا حَيَاةً مُرِيحَةً وَهَادِئَةً فِي مَكَانٍ تَغْمُرُهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ مِثْلَمَا كَانَ يَعِيشُ فِي بَيْتِ الْقَاضِي ميلر لَا يَفْعَلُ شَيْئًا سِوَى التَّسَكُّعِ وَالشُّعُورِ بِالْمَلَلِ. فَهُنَا لَا يُوجَدُ شُعُورٌ بِالسَّكِينَةِ أَوِ الرَّاحَةِ، وَلَا يَنْعَمُ بِلَحْظَةِ أَمَانٍ وَاحِدَةٍ. فَفِي كُلِّ مَا حَوْلَهُ يُوجَدُ ارْتِبَاكٌ وَحَرَكَةٌ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ يَلُوحُ خَطَرٌ جَدِيدٌ، وَلِذَا كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْقَى مُتَيَقِّظًا طَوَالَ الْوَقْتِ؛ فَهُؤَلَاءِ الْأَشْخَاصُ وَالْكِلَابُ يَخْتَلِفُونَ عَنِ الَّذِينَ عَرَفَهُمْ فِي الْمَاضِي، فَهُؤُلَاءِ خَطِرُونَ وَالْقَانُونُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَعْرِفُونَهُ هُوَ قَانُونُ الْأَحْبَالِ وَالْأَنْيَابِ.

لَمْ يَرَ باك الْكِلَابَ تَتَعَارَكُ هَكَذَا مِنْ قَبْلُ، وَقَدْ عَلَّمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ الْأُولَى دَرْسًا لَا يُنْسَى. فَبَيْنَمَا كَانُوا يُخَيِّمُونَ قُرْبَ مَخْزَنِ الْخَشَبِ، اقْتَرَبَتْ كيرلي بِطَرِيقَتِهَا الْوَدُودَةِ مِنْ كَلْبٍ مِنْ فَصِيلَةِ الهاسكي، وَكَانَ هَذَا الْكَلْبُ فِي حَجْمِ ذِئْبٍ بَالِغٍ، وَلَكِنَّ حَجْمَهُ لَا يَكَادُ يَكُونُ نِصْفَ حَجْمِهَا، وَبِدُونِ سَابِقِ إِنْذَارٍ قَفَزَ الْكَلْبُ وَطَرَحَهَا أَرْضًا.

كَانَ هَذَا أُسْلُوبَ الذِّئَابِ فِي الْعِرَاكِ، يَقْفِزُ عَلَى خَصْمِهِ، وَيَضْرِبُهُ، ثُمَّ يَقْفِزُ مُبْتَعِدًا عَنْهُ، وَلَكِنَّ مَا حَدثَ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَقَدْ رَكَضَ حَوَالَيْ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ كَلْبًا مِنْ كِلَابِ الهاسكي وَأَحَاطُوا بِالْكَلْبَيْنِ فِي هُدُوءٍ يُنْذِرُ بِالْخَطَرِ. لَمْ يَفْهَمْ باك سَبَبَ ذَلِكَ. حَاوَلَتْ كيرلي أَنْ تَهْجُمَ عَلَى الْكَلْبِ الْآخَرِ وَلَكِنَّهُ طَرَحَهَا أَرْضًا مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ اقْتَرَبَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى وَالْتَفَّتْ حَوْلَهَا، وَأَخَذَتْ تُرْهِبُهَا وَهِيَ تَنْبَحُ وَتَعَضُّهَا.

حَدَثَ ذَلِكَ فَجْأَةً، وَلَمْ يَكُنْ مُتَوَقَّعًا بِالْمَرَّةِ حَتَّى إِنَّ باك لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَتَصَرَّفُ. رَأَى باك كَلْبًا اسْمُهُ سبيتز يُخْرِجُ لِسَانَهُ مِنْ فَمِهِ لِيَضْحَكَ بِطَرِيقَتِهِ الْغَرِيبَةِ، وَرَأَى أَيْضًا

فرانسوا يُمْسِكُ بِعَصًا وَيُلَوِّحُ بِهَا وَهُوَ يَرْكُضُ نَحْوَ مَجْمُوعَةِ الْكِلَابِ لِيُفَرِّقَهَا، وَكَانَ هُنَاكَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ آخَرِينَ يُسَاعِدُونَهُ. لَمْ يَسْتَغْرِقِ الْأَمْرُ طَوِيلًا، وَلَكِنَّ كيرلي كَانَتْ قَدْ جُرِحَتْ وَأَخَذَهَا فرانسوا بَعِيدًا. رَأَى باك أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَكُنْ عَادِلَةً، هَكَذَا تَتَصَرَّفُ هَذِهِ الْكِلَابُ إِذَنْ؟ عِنْدَمَا تَقَعُ تَلْتَفُّ جَمِيعُهَا لِتُهَاجِمَكَ؛ إِذَنْ فَعَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ حِذْرَهُ حَتَّى لَا يَقَعَ أَبَدًا عَلَى الْأَرْضِ. أَخْرَجَ سبيتز لِسَانَهُ وَضَحِكَ مَرَّةً أُخْرَى، وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَرِهَهُ باك أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ كَلْبٍ أَوْ إِنْسَانٍ عَرَفَهُ فِي حَيَاتِهِ.

وَقَبْلَ أَنْ يُفِيقَ باك مِنْ صَدْمَةِ مَا حَدَثَ لِكيرلي تَلَقَّى صَدْمَةً أُخْرَى. فَقَدْ ثَبَّتَ فرانسوا عَلَى ظَهْرِهِ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَحْزِمَةِ الْمَرْبُوطَةِ بِالْمَشَابِكِ، كَانَ سَرْجًا كَالَّذِي كَانَ يَرَى النَّاسَ يَضَعُونَهُ عَلَى ظُهُورِ الْخُيُولِ فِي بَلْدَتِهِ، وَبِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي كَانَتِ الْخُيُولُ تَعْمَلُ بِهَا، بَدَأَ باك فِي الْعَمَلِ: فَكَانَ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ الَّتِي يَرْكَبُهَا فرانسوا إِلَى الْغَابَةِ الْمَوْجُودَةِ عِنْدَ أَطْرَافِ الْوَادِي وَيَعُودُ وَمَعَهُمَا حِمْلٌ مِنَ الْأَخْشَابِ الَّتِي تُسْتَخْدَمُ فِي التَّدْفِئَةِ. لَمْ يَرُقْ هَذَا الْعَمَلُ لِباك وَلَكِنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ حِكْمَةً مِنْ أَنْ يَرْفُضَ الْقِيَامَ بِهِ، فَقَدْ أَدَّى مَهَمَّتَهُ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، وَبَذَل كُلَّ مَا فِي وُسْعِهِ مَعَ أَنَّ كُلَّ هَذَا كَانَ جَدِيدًا عَلَيْهِ. كَانَ فرانسوا صَارِمًا مَعَ الْكِلَابِ وَكَانَ سبيتز هُوَ قَائِدُهَا، فَقَدْ كَانَ هُوَ وَديف أَكْثَرَ الْكِلَابِ خِبْرَةً، وَكَانَا يُعَلِّمَانِ باك بِالنُّبَاحِ فِي وَجْهِهِ وَعَضِّهِ عِنْدَمَا يُخْطِئُ، وَقَدْ تَعَلَّمَ باك مِنْهُمَا وَمِنْ فرانسوا بِسُرْعَةٍ. فَقَبْلَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْمُعَسْكَرِ كَانَ باك قَدْ تَعَلَّمَ الْوُقُوفَ حِينَمَا يَسْمَعُ كَلِمَةَ «قِفْ» وَيَمْشِي حِينَمَا يَسْمَعُ كَلِمَةَ «انْطَلِقْ»، وَأَنْ يَنْعَطِفَ عِنْدَ الْمَلَفَّاتِ، وَيَبْتَعِدَ عَنِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى عِنْدَمَا تَنْحَدِرُ الْمِزْلَجَةُ الْمُحَمَّلَةُ مِنْ خَلْفِهِمْ أَسْفَلَ التَّلِّ.

وَقَدْ قَالَ فرانسوا لِبيرو: «إِنَّ الْكِلَابَ الثَّلَاثَةَ مَاهِرَةٌ جِدًّا، وَذَلِكَ الْكَلْبُ باك يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، سَأَسْتَطِيعُ تَعْلِيمَهُ أَيَّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ.»

وَبِحُلُولِ فَتْرَةِ بَعْدِ الظَّهِيرَةِ، عَادَ بيرو — الَّذِي كَانَ فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ لِيَذْهَبَ لِتَوْصِيلِ مَا بِحَوْزَتِهِ مِنْ بَرِيدٍ — وَمَعَهُ كَلْبَانِ آخَرَانِ. كَانَ يَدْعُوهُمَا بيلي وَجو، وَهُمَا أَخَوَانِ مِنْ فَصِيلَةِ الهاسكي. وَمَعَ أَنَّهُمَا كَانَا مِنْ أُمٍّ وَاحِدَةٍ، كَانَا مُخْتَلِفَيْنِ تَمَامًا عَنْ بَعْضِهِمَا الْبَعْضِ، فَقَدْ كَانَ بيلي لَطِيفًا وَهَادِئَ الطِّبَاعِ، بَيْنَمَا كَانَ جو يَقِفُ عَلَى النَّقِيضِ مِنْهُ؛ حَادَّ الطِّبَاعِ وَكَئِيبًا، يُزَمْجِرُ دَائِمًا وَتَظْهَرُ فِي عَيْنَيْهِ نَظْرَةٌ خَبِيثَةٌ. رَحَّبَ باك بِالْكَلْبَيْنِ، بَيْنَمَا تَجَاهَلَهُمَا ديف، وَحَاوَلَ سبيتز إِرْهَابَهُمَا. فِي الْبِدَايَةِ حَرَّكَ بيلي ذَيْلَهُ ثُمَّ جَرَى بَعِيدًا حِينَمَا

أَدْرَكَ دَنَاءَةَ سبيتز، أَمَّا جو فَمَهْمَا حَاوَلَ سبيتز إِرْهَابَهُ كَانَ يَقِفُ فِي وَجْهِهِ، حَتَّى لَوْ شَعَرَ بِدَاخِلِهِ بِالرُّعْبِ مِنْهُ. انْتَصَبَ شَعْرُ رَقَبَةِ جو وَانْحَنَتْ أُذُنَاهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَأَخَذَ يُزَمْجِرُ، وَكَانَ يَبْدُو شرسًا وَمُرَوِّعًا حَتَّى إِنَّ سبيتز اسْتَسْلَمَ فِي النِّهَايَةِ، وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي مُطَارَدَةِ بيلي لِيَحْفَظَ مَاءَ وَجْهِهِ.

بِحُلُولِ الْمَسَاءِ أَحْضَرَ بيرو كَلْبًا آخَرَ إِلَى الْمَجْمُوعَةِ، كَانَ كَلْبًا عَجُوزًا مِنْ فَصِيلَةِ الهاسكي، وَكَانَ طَوِيلًا وَنَحِيلًا وَذَا عَيْنٍ وَاحِدَةٍ وَعَلَى وَجْهِهِ آثَارٌ لِإِصَابَةٍ فِي مَعْرَكَةٍ قَدِيمَةٍ. كَانَ يُدْعَى سوليكس — وَيَعْنِي الْكَلْبَ الْغَاضِبَ. وَعَلَى غِرَارِ ديف، لَمْ يَكُنْ يَطْلُبُ أَيَّ شَيْءٍ أَوْ يُعْطِي أَيَّ شَيْءٍ أَوْ يَتَوَقَّعُ أَيَّ شَيْءٍ. وَعِنْدَمَا تَحَرَّكَ بِبُطْءٍ لِيَنْضَمَّ إِلَى الْقَطِيعِ، حَتَّى سبيتز تَرَكَهُ وَشَأْنَهُ. وَلَكِنْ كَانَ لَدَى سوليكس عَادَةٌ وَاحِدَةٌ اكْتَشَفَهَا باك لِسُوءِ حَظِّهِ، كَانَ لَا يُحِبُّ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةِ عَيْنِهِ الْمُصَابَةِ، وَقَدْ فَعَلَهَا باك بِالْخَطَأِ، فَاسْتَدَارَ سولِّيكس نَحْوَهُ وَنَبَحَ فِي وَجْهِهِ. وَمُنْذُ تِلْكَ اللَّحْظَةِ، تَجَنَّبَ باك ذَلِكَ الْجَانِبَ حَيْثُ عَيْنُهُ الْعَمْيَاءُ، فَلَمْ يَقَعْ فِي أَيِّ مُشْكِلَةٍ بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَبْدُو أَنَّ سوليكس كَانَ مِثْلَ ديف لَا يَطْمَحُ سِوَى إِلَى أَنْ يَتْرُكَهُ الْآخَرُونَ وَشَأْنَهُ.

الفصل الثالث

رِحْلَةُ تَعَلُّمٍ لِلْبَقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَاجَهَ باك مُشْكِلَةً كَبِيرَةً وَقْتَ النَّوْمِ. كَانَتِ الْخَيْمَةُ — الَّتِي تُضِيئُهَا شَمْعَةٌ — يَمْلَؤُهَا الدِّفْءُ، بَيْنَمَا كَانَ كُلُّ شَيْءٍ حَوْلَهُمْ أَبْيَضَ وَمَلِيئًا بِالثَّلْجِ. وَعِنْدَمَا دَخَلَ باك الْخَيْمَةَ — ظَنًّا مِنْهُ أَنْ ذَلِكَ تَصَرُّفًا عَادِيًّا — صَرَخَ بيرو وَفرانسوا فِي وَجْهِهِ وَأَخَذَا يَقْذِفَانِهِ بِالْأَشْيَاءِ حَتَّى جَرَى بَعِيدًا وَهُوَ يَشْعُرُ بِالْغَضَبِ وَالْإِحْرَاجِ وَخَرَجَ مَرَّةً أُخْرَى فِي الْجَوِّ الْبَارِدِ، وَأَخَذَ الْهَوَاءُ شَدِيدُ الْبُرُودَةِ يَنْشِبُ سِهَامَهُ فِي عِظَامِهِ. فَاسْتَلْقَى باك عَلَى الثُّلُوجِ وَحَاوَلَ أَنْ يَنَامَ، وَلَكِنَّ الصَّقِيعَ جَعَلَ جَسَدَهُ كُلَّهُ يَرْتَجِفُ. وَأَخَذَ باك يَسِيرُ وَسْطَ الْخِيَمِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَهُوَ فِي حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا، وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ مَكَانًا أَقَلَّ بُرُودَةً مِنَ الْآخَرِ. حَاوَلَتِ الْكِلَابُ الْمُتَوَحِّشَةُ الَّتِي تُقَابِلُهُ هُنَا وَهُنَاكَ أَنْ تُرْهِبَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُزَمْجِرُ وَيَنْتَصِبُ شَعْرُ رَقَبَتِهِ (فَقَدْ كَانَ يَتَعَلَّمُ بِسُرْعَةٍ كَيْفَ يَرُدُّ عَلَى هُجُومِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى)، فَيَتْرُكُونَهُ يَمْضِي فِي طَرِيقِهِ وَلَا يَعُودُونَ لِمُضَايَقَتِهِ.

ثُمَّ خَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ، وَقَرَّرَ أَنْ يَعُودَ إِلَى زُمَلَائِهِ فِي الْقَطِيعِ وَيَرَى كَيْفَ يَنَامُونَ. وَلَكِنَّهُ فُوجِئَ بِأَنَّهُمْ قَدِ اخْتَفَوْا. أَخَذَ باك يَدُورُ حَوْلَ الْمُعَسْكَرِ الْكَبِيرِ بَاحِثًا عَنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ عَادَ دُونَ أَنْ يَجِدَهُمْ. هَلْ هُمْ دَاخِلَ الْخَيْمَةِ؟ وَلَكِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَإِلَّا لَمَا كَانَ طُرِدَ مِنْهَا. أَيْنَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا إِذَنْ؟ أَخَذَ باك يَدُورُ حَوْلَ الْخَيْمَةِ وَهُوَ يَرْتَعِشُ وَيَجُرُّ ذَيْلَهُ خَلْفَهُ، كَانَ يَشْعُرُ بِالضَّيَاعِ وَالْوَحْدَةِ. وَفَجْأَةً انْزَاحَ الثَّلْجُ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ وَغَاصَتْ قَدَمَاهُ قَلِيلًا ثُمَّ شَعَرَ بِشَيْءٍ يَتَلَوَّى تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَفَزَ إِلَى الْوَرَاءِ وَأَخَذَ يُزَمْجِرُ وَقَدِ انْتَصَبَ شَعْرُهُ وَهُوَ يَشْعُرُ بِخَوْفٍ مِنَ الْمَجْهُولِ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ عُوَاءً وَدُودًا يُطَمْئِنُهُ، فَعَادَ مَرَّةً

أُخْرَى لِيَسْتَكْشِفَ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ. اشْتَمَّ باك نَسْمَةَ هَوَاءٍ دَافِئٍ، وَهُنَاكَ رَأَى بيلي وَهُوَ مُتَكَوِّرٌ عَلَى نَفْسِهِ تَحْتَ الثُّلُوجِ مُسْتَلْقِيًا فِي كُرَةٍ دَافِئَةٍ. أَخَذَ بيلي يَعْوِي وَيَتَلَوَّى لِيُثْبِتَ لِباك أَنَّهُ صَدِيقٌ، بَلْ وَلَعَقَ وَجْهَ باك بِلِسَانِهِ الرَّطْبِ الدَّافِئ.

كَانَ هَذَا دَرْسًا آخَرَ تَعَلَّمَهُ باك، فَهَكَذَا يَنَامُ الْكِلَابُ وَسْطَ الثُّلُوجِ. انْتَقَى باك مَوْضِعًا، وَبَدَأَ يَعْمَلُ بِجِدٍّ لِيَحْفِرَ لِنَفْسِهِ حُفْرَةً، وَسُرْعَانَ مَا تَسَرَّبَتِ الْحَرَارَةُ مِنْ جَسَدِهِ لِتَمْلَأَ هَذَا الْمَكَانَ الصَّغِيرَ وَرَاحَ باك فِي النَّوْمِ. لَقَدْ مَرَّ بِيَوْمٍ طَوِيلٍ وَشَاقٍّ، وَلِذَا فَقَدْ غَطَّ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ وَمُرِيحٍ، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ يُزَمْجِرُ وَيَنْبَحُ وَهُوَ يُصَارِعُ الْأَحْلَامَ السَّيِّئَةَ.

لَمْ يَفْتَحْ باك عَيْنَيْهِ حَتَّى أَيْقَظَتْهُ ضَوْضَاءُ الْمُعَسْكَرِ. فِي الْبِدَايَةِ، لَمْ يُدْرِكْ أَيْنَ هُوَ، فَقَدْ تَسَاقَطَتِ الثُّلُوجُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ وَغَطَّتْهُ تَمَامًا، وَكَانَتِ الْحَوَائِطُ الثَّلْجِيَّةُ تُحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَتَضْغَطُ عَلَى جَسَدِهِ، فَشَعَرَ بِالرُّعْبِ وَتَقَلَّصَتْ عَضَلَاتُهُ وَانْتَصَبَ شَعْرُ رَقَبَتِهِ وَكَتِفَيْهِ تَمَامًا. ثُمَّ قَفَزَ باك وَهُوَ يُزَمْجِرُ بِقُوَّةٍ إِلَى الْأَعْلَى وَخَرَجَ إِلَى ضَوْءِ النَّهَارِ الَّذِي أَعْمَى عَيْنَيْهِ فِي الْبِدَايَةِ، وَتَطَايَرَتْ كُتَلُ الثُّلُوجِ مِنْ فَوْقِهِ. وَقَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ عَلَى قَدَمَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، رَأَى باك مِنْ حَوْلِهِ الْمُعَسْكَرَ الَّذِي تُحِيطُ بِهِ الثُّلُوجُ الْبَيْضَاءُ وَتَذَكَّرَ أَيْنَ هُوَ. وَتَذَكَّرَ باك حِينَهَا مَا حَدَثَ لَهُ مُنْذُ أَنْ ذَهَبَ فِي تِلْكَ النُّزْهَةِ مَعَ مانويل وَحَتَّى حَفَرَ لِنَفْسِهِ حُفْرَةَ اللَّيْلَةَ الْمَاضِيَةَ لِيَنَامَ فِيهَا.

وَبِمُجَرَّدِ رُؤْيَةِ باك، صَاحَ فرانسوا، وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ لِبيرو: «أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ ذَلِكَ الْكَلْبَ باك يَتَعَلَّمُ أَيَّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ؟»

أَوْمَأَ بيرو وَالْجِدِّيَّةُ تَرْتَسِمُ عَلَى مَلَامِحِهِ، فَنَظَرًا لِأَنَّهُ يَعْمَلُ سَاعِيَ بَرِيدٍ لَدَى الْحُكُومَةِ الْكَنَدِيَّةِ وَيَنْقُلُ الْمُرَاسَلَاتِ الْمُهِمَّةَ، كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى أَفْضَلِ الْكِلَابِ، وَلِذَا كَانَ سَعِيدًا لِأَنَّهُ وَجَدَ باك.

انْضَمَّتْ ثَلَاثَةُ كِلَابِ هاسكي أُخْرَى إِلَى الْقَطِيعِ فِي أَقَلَّ مِنْ سَاعَةٍ، لِيُصْبِحَ عَدَدُ الْكِلَابِ تِسْعَةً. وَفِي غُضُونِ رُبْعِ سَاعَةٍ كَانَتِ السُّرُوجُ قَدْ ثُبِّتَتْ عَلَى ظُهُورِهَا جَمِيعًا، وَكَانَتْ تَنْعَطِفُ بِالْمِزْلَجَةِ فَوْقَ الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى وَادِي ديا. كَانَ باك سَعِيدًا بِالِانْطِلَاقِ لِلْعَمَلِ، وَمَعَ أَنَّ الْعَمَلَ كَانَ شَاقًّا، لَمْ يَكُنْ مُنْزَعِجًا مِنْهُ. أَدْهَشَتْهُ حَمَاسَةُ الْقَطِيعِ، وَانْدَهَشَ أَكْثَرَ بِالتَّغْيِيرِ الَّذِي طَرَأَ عَلَى شَخْصِيَّتَيْ ديف وَسوليكس، فَقَدْ بَدَا وَكَأَنَّ السَّرْجَ الْمُثَبَّتَ

عَلَى ظَهْرِ كُلٍّ مِنْهُمَا قَدْ غَيَّرَهُمَا تَمَامًا، فَلَمْ يَعُودَا هَادِئَيْنِ وَمُنْعَزِلَيْنِ، بَلْ بَاتَا مُتَيَقِّظَيْنِ وَمُفْعَمَيْنِ بِالْحَيَوِيَّةِ وَالنَّشَاطِ، وَحَرِيصَيْنِ عَلَى أَدَاءِ الْعَمَلِ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ، وَكَانَا يَغْضَبَانِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ يُؤَخِّرُ عَمَلَهُمَا. بَدَا وَكَأَنَّ الْعَمَلَ الشَّاقَّ هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُسْعِدُهُمَا.

كَانَ ديف هُوَ مَنْ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ مُبَاشَرَةً، وَمِنْ أَمَامِهِ باك ثُمَّ سوليكس وَمِنْ أَمَامِهِمْ بَقِيَّةُ الْجَمْعِ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ يَنْتَهِي بِسبيتز فِي الْمُقَدِّمَةِ، فَقَدْ كَانَ هُوَ الْقَائِدُ.

لَقَدْ وُضِعَ باك بَيْنَ ديف وَسوليكس، حَتَّى يَتَسَنَّى لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ هَذَيْنِ الْكَلْبَيْنِ الْأَكْبَرِ مِنْهُ. وَقَدْ كَانَ باك تِلْمِيذًا نَجِيبًا، وَهُمَا كَانَا مُعَلِّمَيْنِ قَدِيرَيْنِ، لَمْ يَتْرُكَا باك يَتَمَادَى فِي أَيِّ خَطَأٍ، وَكَانَ ديف عَادِلًا وَحَكِيمًا. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ الَّتِي تَوَقَّفَتْ فِيهَا الْمِزْلَجَةُ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ تَعَثَّرَ باك فِي الْحِبَالِ وَأَخَّرَ انْطِلَاقَهَا مَرَّةً أُخْرَى، فَغَضِبَ مِنْهُ ديف وَسوليكس كَثِيرًا، وَلَكِنَّ باك اتَّخَذَ حِذْرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَظَلَّ بَعِيدًا عَنِ الْحِبَالِ. وَقَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الْيَوْمُ أَصْبَحَ أَدَاءُ باك رَائِعًا حَتَّى إِنَّ ديف وسوليكس كَفَّا عَنْ مُضَايَقَتِهِ، وَحَتَّى بيرو قَدْ أَعْلَى مِنْ قَدْرِهِ عِنْدَمَا رَفَعَ قَدَمَيْهِ وَتَفَحَّصَهُمَا بِعِنَايَةٍ.

كَانَتِ الرِّحْلَةُ الَّتِي قَطَعَتْهَا الْكِلَابُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ شَاقَّةً، فَقَدْ صَعِدَتْ إِلَى الْوَادِي عَبْرَ مُعَسْكَرِ شيب، مُرُورًا بِمِنْطَقَةِ سكيلز وَحِزَامِ الْأَشْجَارِ، عَبْرَ الْأَنْهَارِ الْجَلِيدِيَّةِ وَأَكْوَامِ الْجَلِيدِ الَّتِي يَصِلُ عُمْقُهَا لِمِئَاتِ الْأَقْدَامِ، وَعَبَرَتْ فَوْقَ شَقِّ تشيلكوت الَّذِي يَفْصِلُ مَا بَيْنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ وَالْعَذْبِ وَيَقِفُ عِنْدَ حُدُودِ الشَّمَالِ الْمُوحِشِ الْكَئِيبِ. لَقَدْ قَطَعَتْ مِنْطَقَةَ سِلْسِلَةِ الْبُحَيْرَاتِ الَّتِي تَمْلَأُ فُوَّهَاتِ الْبَرَاكِينِ الْخَامِلَةِ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ. فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَوْقَفَ الْقَطِيعُ الْمِزْلَجَةَ عِنْدَ الْمُعَسْكَرِ الْكَبِيرِ الْمَوْجُودِ عِنْدَ بُحَيْرَةِ بينيت، حَيْثُ كَانَ الْآلَافُ مِنَ الْبَاحِثِينَ عَنِ الذَّهَبِ يَبْنُونَ سُفُنَهُمْ وَيَنْتَظِرُونَ ذَوَبَانَ الْجَلِيدِ فِي الرَّبِيعِ. حَفَرَ باك حُفْرَةً فِي الْجَلِيدِ وَنَامَ نَوْمًا عَمِيقًا، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا أَيْقَظَهُ الرِّجَالُ فِي جَوْفِ الظَّلَامِ الْبَارِدِ وَوَضَعُوا عَلَى ظَهْرِهِ سَرْجًا هُوَ وَالْكِلَابِ الْأُخْرَى وَرَبَطُوهَا فِي الْمِزْلَجَةِ.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، اسْتَطَاعَتِ الْكِلَابُ أَنْ تَقْطَعَ مَسَافَةَ أَرْبَعِينَ مِيلًا لِأَنَّ الثَّلْجَ كَانَ قَدْ أُزِيحَ مِنْ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي كَانَتْ تَسْلُكُهُ، مِمَّا جَعَلَ السَّفَرَ أَسْهَلَ. وَلَكِنْ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَشُقَّ طَرِيقَهَا بِنَفْسِهَا وَسْطَ الثُّلُوجِ الْجَدِيدَةِ، وَظَلَّتْ هَكَذَا لِعِدَّةِ أَيَّامٍ، مِمَّا كَانَ يَعْنِي بَذْلَ مَزِيدٍ مِنَ الْجُهْدِ وَالسَّفَرِ بِسُرْعَةٍ أَقَلَّ. كَانَ بيرو يَتَقَدَّمُهَا لِيُزِيحَ الثُّلُوجَ

بِجذَائِهِ الْمُخَصَّصِ لِلسَّيْرِ عَلَى الْجَلِيدِ حَتَّى يُيَسِّرَ مُهِمَّتَهَا، أَمَّا فرانسوا فَكَانَ يَقُودُ الْمِزْلَجَةَ وَأَحْيَانًا يَتَبَادَلُ الْأَدْوَارَ مَعَ بيرو، وَلَكِنْ لَيْسَ كَثِيرًا. فَقَدْ كَانَ بيرو عَلَى عَجَلَةٍ وَكَانَ يَفْتَخِرُ بِمَعْرِفَتِهِ الْجَيِّدَةِ لِلثُّلُوجِ وَالْجَلِيدِ. وَقَدْ كَانَتِ الْمَعْرِفَةُ بِالْجَلِيدِ أَمْرًا مُهِمًّا لِلْغَايَةِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَافِرُونَ عَبْرَهُ لِشُهُورٍ فِي الرِّحْلَةِ الْوَاحِدَةِ. وَفِي الْخَرِيفِ تَكُونُ طَبَقَةُ الْجَلِيدِ رَفِيعَةً، وَيَخْتَفِي تَمَامًا فِي الْمَنَاطِقِ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا الْمِيَاهُ.

وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، ظَلَّ باك يَعْمَلُ بِجِدٍّ، وَكَانُوا دَائِمًا يتَوَقَّفُونَ وَيُخَيِّمُونَ فِي الظَّلَامِ، فَتَأْكُلُ الْكِلَابُ الْأَسْمَاكَ الْمُخَصَّصَةَ لَهَا ثُمَّ تَنْدَسُّ تَحْتَ الثَّلْجِ لِتَنَامَ، ثُمَّ تَسْتَأْنِفُ جَرَّ الْمِزْلَجَةِ عَلَى الطَّرِيقِ مَرَّةً أُخْرَى لِتُشْرِقَ الشَّمْسُ عَلَيْهَا وَقَدْ قَطَعَتْ بِالْفِعْلِ عِدَّةَ أَمْيَالٍ عَلَى الطَّرِيقِ مَرَّةً أُخْرَى. كَانَ باك يَشْعُرُ بِالْجُوعِ الشَّدِيدِ، وَلَمْ تَكُنْ حِصَّتُهُ الْيَوْمِيَّةُ مِنَ الطَّعَامِ — الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْ رَطْلٍ وَنِصْفٍ مِنْ سَمَكِ السَّلْمُونِ الْمُجَفَّفِ — تَكْفِيهِ. أَمَّا الْكِلَابُ الْأُخْرَى — نَظرًا لِأَنَّهَا كانتْ أَقَلَّ وَزْنًا وَمُعْتَادَةً عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ — فَكَانَتْ حِصَّتُهَا الْيَوْمِيَّةُ رَطْلًا وَاحِدًا فَقَطْ مِنَ السَّمَكِ، وَاسْتَطَاعَتِ الْحِفَاظَ عَلَى لِيَاقَتِهَا.

سُرْعَانَ مَا تَخَلَّى باك عَنْ نِظَامِهِ وَهِنْدَامِهِ، وَهُوَ مَا كَانَ صِفَةً أَسَاسِيَّةً مِنْ حَيَاتِهِ فِي الْمَاضِي، فَقَدِ اعْتَادَ باك عَلَى تَنَاوُلِ طَعَامِهِ بِعِنَايَةٍ، وَلَكِنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّ الْكِلَابَ الْأُخْرَى — بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ مِنْ طَعَامِهَا قَبْلَهُ — تَسْرِقُ طَعَامَهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِ باك أَنْ يُدَافِعَ عَنْهُ. فَعِنْدَمَا كَانَ يَرْكُضُ وَرَاءَ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِمَّنْ سَرَقُوا طَعَامَهُ كَانَ الْآخَرُون يَأْكُلُونَ مَا بَقِيَ مِنْهُ، وَلِذَا كَانَ باك يَتَنَاوَلُ طَعَامَهُ بِسُرْعَةٍ مِثْلَهُمْ، وَكَانَ غَالِبًا مَا يَظَلُّ جَائِعًا حَتَّى إِنَّهُ يَسْرِقُ الطَّعَامَ مِنَ الْكِلَابِ الَّتِي لَا تَأْكُلُ بِمِثْلِ سُرْعَتِهِ. وَكَانَ باك يُشَاهِدُ وَيَتَعَلَّمُ مِمَّا يُشَاهِدُهُ. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ رَأَى بايك — وَهُوَ كَلْبٌ انْضَمَّ لِلْقَطِيعِ حَدِيثًا وَكَانَ مَاهِرًا فِي السَّرِقَةِ — وَهُوَ يَسْرِقُ شَرِيحَةَ لَحْمٍ عِنْدَمَا اسْتَدَارَ بيرو، فَفَعَلَ باك مِثْلَهُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي وَسَرَقَ قِطْعَةَ لَحْمٍ كَامِلَةً. غَضِبَ بيرو لِلْغَايَةِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشُكَّ فِي باك، بَلِ اتَّهَمَ كَلْبًا آخَرَ اسْمُهُ داب — وَهُوَ كَلْبٌ أَخْرَقُ دَائِمًا مَا يُمْسِكُ بِهِ بيرو وَهُوَ يَسْرِقُ — وَعَاقَبَهُ.

اسْتَطَاعَ باك بِفَضْلِ الطَّعَامِ الَّذِي سَرَقَهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى أَنْ يَبْقَى عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ فِي أَرْضِ الشَّمَالِ، وَقَدْ أَظْهَرَ ذَلِكَ شَيْئًا مُهِمًّا لِلْغَايَةِ؛ أَلَا وَهُوَ قُدْرَتُهُ عَلَى التَّكَيُّفِ مَعَ حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ. كَمَا أَظْهَرَ كَذَلِكَ أَنَّ ضَمِيرَهُ لَمْ يَعُدْ يُؤَنِّبُهُ بِسَبَبِ السَّرِقَةِ. فَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ خَيَارٌ

آخَرُ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْبَارِدِ الْمُوحِشِ، فَهُوَ لَمْ يَسْرِقْ لِأَنَّهُ يُحِبُّ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لِأَنَّهُ كَانَ جَائِعًا. وَكَانَ باك يَسْرِقُ بِحِرْصٍ وَفِي سِرِّيَّةٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُعَاقَبَ عَلَى السَّرِقَةِ.

وَسُرْعَانَ مَا تَغَيَّرَ باك؛ فَقَدْ أَصْبَحَتْ عَضَلَاتُهُ صُلْبَةً مِثْلَ الْحَدِيدِ، وَكَانَ بِوُسْعِهِ أَنْ يَتَجَاهَلَ الْآلَامَ الْعَادِيَّةَ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَأْكُلَ أَيَّ شَيْءٍ، فَجِسْمُهُ كَانَ يُحَوِّلُ أَيَّ طَعَامٍ إِلَى طَاقَةٍ حَتَّى تَقْوَى عَضَلَاتُهُ وَتُصْبِحَ أَكْثَرَ صَلَابَةً.

كَمَا أَصْبَحَتْ حَاسَّتَا الْبَصَرِ وَالشَّمِّ لَدَيْهِ خَارِقَتَيْنِ، وَبَاتَ سَمْعُهُ حَادًّا لِدَرَجَةِ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْمَعَ أَكْثَرَ الْأَصْوَاتِ الْخَافِتَةِ وَهُوَ نَائِمٌ وَيَعْرِفُ مَصْدَرَهَا. وَتَعَلَّمَ باك أَيْضًا أَنْ يَأْكُلَ الثَّلْجَ بِأَسْنَانِهِ عِنْدَمَا يَتَكَوَّمُ بَيْنَ أَصَابِعِ أَقْدَامِهِ، وَعِنْدَمَا كَانَ يَشْعُرُ بِالْعَطَشِ وَيَجِدُ طَبَقَةَ جَلِيدٍ تُغَطِّي بِرْكَةَ مِيَاهٍ كَانَ يَقِفُ عَلَى قَدَمَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ ثُمَّ يَنْزِلُ بِقَدَمَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ عَلَى الْجَلِيدِ وَيُحَطِّمُهُ. بَلْ وَأَصْبَحَ بِإِمْكَانِهِ كَذَلِكَ أَنْ يَتَنَبَّأَ بِحَالَةِ الطَّقْسِ إِذَا اشْتَمَّ الْهَوَاءَ.

لَمْ يَتَعَلَّمْ باك بِالتَّجْرِبَةِ وَحْدَهَا، وَلَكِنْ تَنَبَّهَتْ بِدَاخِلِهِ غَرَائِزُ هُوَ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَنَهُ يَمْتَلِكُهَا. فَقَدْ شَعَرَ وَكَأَنَّ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَتَذَكَّرَ مَتَى كَانَتِ الْكِلَابُ الْبَرِّيَّةُ تَجْرِي فِي قُطْعَانٍ عَبْرَ الْغَابَةِ لِتَصْطَادَ طَعَامَهَا. وَعِنْدَمَا كَانَ يَتَعَارَكُ مَعَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّ وَاحِدًا مِنْ أَسْلَافِهِ هُوَ مَنْ يَتَعَارَكُ. فَقَدِ اسْتَيْقَظَتْ بِدَاخِلِهِ تِلْكَ الْحَيَاةُ الْقَدِيمَةُ الَّتِي كَانَ أَجْدَادُهُ يَعِيشُونَهَا فِي الْمَاضِي وَالْخُدَعُ الَّتِي كَانُوا يَلْجَئُونَ إِلَيْهَا، دُونَ أَنْ يُحَاوِلَ هُوَ اسْتِعَادَتَهَا، كَمَا لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً لَدَيْهِ طَوَالَ حَيَاتِهِ. وَفِي اللَّيَالِي الْبَارِدَةِ، عِنْدَمَا كَانَ باك يُشِيرُ بِأَنْفِهِ إِلَى نَجْمَةٍ مِنَ النُّجُومِ وَيَعْوِي طَوِيلًا مِثْلَ الذِّئَابِ، كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ الصَّوْتَ الْمُنْبَعِثَ مِنْ دَاخِلِهِ هُوَ صَوْتُ أَحَدِ أَجْدَادِهِ آتٍ مِنْ خَلْفِ الْقُرُونِ الطَّوِيلَةِ، فَقَدْ بَاتَ صَوْتُهُ هُوَ صَوْتَهُمْ.

لَقَدْ تَغَيَّرَتْ حَيَاةُ باك تَغَيُّرًا كَبِيرًا، كُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّ بَعْضَ الرِّجَالِ قَدْ عَثَرُوا عَلَى مَعْدِنٍ أَصْفَرَ فِي الشَّمَالِ، وَأَنَّ مانويل مُسَاعِدَ الْبُسْتَانِيِّ كَانَ يُحِبُّ الْمُقَامَرَةَ.

الفصل الرابع

الْكَلْبُ الأَقْوَى

كَانَتْ هُنَاكَ رَغْبَةٌ دَاخِلَ باك فِي أَنْ يُصْبِحَ أَقْوَى كَلْبٍ فِي الْقَطِيعِ، وَفِي ظِلِّ ظُرُوفِ حَيَاةِ السَّفَرِ وَالتَّنَقُّلِ الصَّعْبَةِ تَزَايَدَتْ هَذِهِ الرَّغْبَةُ بِدَاخِلِهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَلَكِنَّ باك أَبْقَى هَذَا الشُّعُورَ سِرًّا. فَقَدِ اكْتَسَبَ باك مَلَكَةً جَدِيدَةً بِالنِّسْبَةِ لَهُ هِيَ الْحِيلَةُ وَالْخُبْثُ، وَسَاعَدَتْهُ تِلْكَ الْمَلَكَةُ عَلَى أَنْ يَبْقَى هَادِئًا وَمُسَيْطِرًا عَلَى نَفْسِهِ. وَقَدْ كَانَ باك مَشْغُولًا جِدًّا بِمُحَاوَلَةِ الِاعْتِيَادِ عَلَى حَيَاتِهِ الْجَدِيدَةِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي الرَّاحَةِ. وَكَانَ لَا يَبْدَأُ بِالْعِرَاكِ مَعَ أَيِّ كَلْبٍ آخَرَ وَكَانَ يُحَاوِلُ دَائِمًا أَنْ يَتَجَنَّبَ الْعِرَاكَ إِنْ أَمْكَنَ. وَمَعَ أَنَّ باك وَسبيتز لَمْ يُحِبَّا بَعْضَهُمَا، وَكَانَ ذَلِكَ الشُّعُورُ يَتَزَايَدُ كُلَّ يَوْمٍ، لَمْ يُظْهِرْ باك ذَلِكَ أَبَدًا.

وَعَلَى النَّقِيضِ، كَانَ سبيتز لَا يُفَوِّتُ فُرْصَةً دُونَ أَنْ يُكَشِّرَ عَنْ أَنْيَابِهِ، رُبَّمَا لِأَنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِأَنَّ باك يُمْكِنُ أَنْ يَأْخُذَ مَكَانَهُ قَائِدًا لِلْقَطِيعِ. وَكَانَ يُحَاوِلُ دَائِمًا أَنْ يُرْهِبَ باك وَأَنْ يَبْدَأَ شِجَارًا لَا يَنْتَهِي إِلَّا بِاسْتِسْلَامِ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَهُرُوبِهِ.

كادت مُشَاجَرَةٌ كَهَذِهِ أَنْ تَحْدُثَ فِي بِدَايَةِ إِحْدَى الرِّحْلَاتِ، وَلَكِنْ وَقَعَتْ حَادِثَةٌ أَنْهَتْهَا. فَفِي نِهَايَةِ هَذَا الْيَوْمِ، خَيَّمَ الْفَرِيقُ الْمُسَافِرُ عِنْدَ شَاطِئِ بُحَيْرَةِ لوبارج، وَكَانَ الْمَكَانُ مُوحِشًا وَكَئِيبًا. فَالثُّلُوجُ الْمُنْهَمِرَةُ فِي غَزَارَةٍ وَالرِّيَاحُ الْعَاتِيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَضْرِبُهُمْ بِسِهَامِهَا وَالظَّلَامُ الدَّامِسُ، كُلُّ ذَلِكَ أَجْبَرَهُمْ عَلَى الْبَحْثِ فِي الظَّلَامِ الَّذِي أَعْمَاهُمْ عَنْ مَكَانٍ يُخَيِّمُونَ فِيهِ. وَكَانَ ذَلِكَ الْمَكَانُ هُوَ أَسْوَأُ مَكَانٍ وَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيَارُهُمْ. وَكَانَ هُنَاكَ جِدَارٌ صَخْرِيٌّ خَلْفَهُمْ، وَاضْطُرَّ فرانسوا وَبيرو لِأَنْ يُشْعِلَا النَّارَ وَيَضَعَا حَقِيبَتَي النَّوْمِ فَوْقَ طَبَقَةِ الْجَلِيدِ الَّتِي تُغَطِّي الْبُحَيْرَةَ نَفْسَهَا، حَيْثُ اضْطُرَّا لِلتَّخَلُّصِ مِنَ الْخَيْمَةِ حَتَّى لَا تُشَكِّلَ عِبْئًا عَلَيْهِمَا

فِي السَّفَرِ. وَاسْتَخْدَمَا بَعْضَ أَعْوَادِ الْخَشَبِ الطَّافِيَةِ لِيُشْعِلَا النَّارَ، وَلَكِنَّهَا سُرْعَانَ مَا خَبَتْ بِسَبَبِ وُجُودِ الثُّلُوجِ وَاضْطُرَّا لِتَنَاوُلِ الْعَشَاءِ فِي الظَّلَامِ.

حَفَرَ باك حُفْرَةً لِيَنَامَ فِيهَا بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَائِطِ الصَّخْرِيِّ، وَكَانَ يَنْعَمُ فِيهَا بِالدِّفْءِ الشَّدِيدِ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يَتْرُكَهَا عِنْدَمَا وَزَّعَ فرانسوا الْأَسْمَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ وَضَعَهَا فَوْقَ النَّارِ قَلِيلًا لِيَذُوبَ الثَّلْجُ مِنْ عَلَيْهَا. عِنْدَمَا انْتَهَى باك مِنْ تَنَاوُلِ طَعَامِهِ وَعَادَ إِلَى الْحُفْرَةِ لِيَنَامَ وَجَدَ كَلْبًا آخَرَ بِدَاخِلِهَا، وَعَرَفَ مِنَ الزَّمْجَرَةِ الَّتِي أَطْلَقَهَا مُحَذِّرًا إِيَّاهُ أَنَّهُ سبيتز. حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ باك يَتَجَنَّبُ الْعِرَاكَ مَعَ عَدُوِّهِ، وَلَكِنْ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَحْتَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، لَقَدْ ثَارَ الْوَحْشُ الَّذِي بِدَاخِلِهِ؛ فَقَفَزَ باك عَلَى سبيتز فِي غَضَبٍ جَامِحٍ أَذْهَلَ كُلًّا مِنْهُمَا، وَبِالْأَخَصِّ سبيتز الَّذِي كَانَ يَعْتَقِدُ مِنْ خِبْرَتِهِ مَعَ باك أَنَّهُ كَلْبٌ جَبَانٌ وَهَادِئٌ اسْتَطَاعَ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى مَرْكَزِهِ بَيْنَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى فَقَطْ بِفَضْلِ وَزْنِهِ وَحَجْمِهِ الْكَبِيرَيْنِ.

انْدَهَشَ فرانسوا أَيْضًا عِنْدَمَا تَدَحْرَجَ الْكَلْبَانِ خَارِجَ الْحُفْرَةِ وَهُمَا يَتَشَاجَرَانِ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُخَمِّنَ سَبَبَ الْمُشَاجَرَةِ.

صَاحَ فرانسوا إِلَى باك: «آاااهِ! اضْرِبْهُ، اضْرِبْ هَذَا اللِّصَّ الْحَقِيرَ!»

وَكَانَ سبيتز عَلَى الْقَدْرِ نَفْسِهِ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ للقتال، فَقَدْ كَانَ يَصِيحُ فِي غَضَبٍ وَحَمَاسَةٍ وَهُوَ يُحَوِّمُ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ مُنْتَظِرًا اللَّحْظَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِيَنْقَضَّ عَلَى باك. وَكَانَ باك مُتَشَوِّقًا أَيْضًا لِلْمَعْرَكَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ حَذِرًا كَذَلِكَ وَهُوَ يُحَوِّمُ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ، وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ حَدَثَ شَيْءٌ غَيْرُ مُتَوَقَّعٍ جَعَلَهُمَا يُؤَجِّلَانِ الْمَعْرَكَةَ.

فَقَدْ سَمِعُوا فَجْأَةً صِيَاحَ بيرو وَأَصْوَاتَ نُبَاحٍ هَادِرَةً. لَقَدِ امْتَلَأَ الْمُعَسْكَرُ فَجْأَةً بِحَيَوَانَاتٍ غَرِيبَةٍ، خَمْسِينَ أَوْ سِتِّينَ كَلْبًا مِنْ كِلَابِ الهاسكي الَّتِي كَانَتْ تَتَضَوَّرُ جُوعًا، وَالَّتِي الْتَقَطَتْ رَائِحَةَ الْمُعَسْكَرِ مِنْ قَرْيَةٍ مُجَاوِرَةٍ. تَسَلَّلَتْ هَذِهِ الْكِلَابُ عِنْدَمَا كَانَ باك وسبيتز يَتَعَارَكَانِ، وَعِنْدَمَا قَفَزَ الرَّجُلَانِ وَسْطَ هَذِهِ الْكِلَابِ الْجَامِحَةِ، كَشَّرَتْ عَنْ أَنْيَابِهَا وَهَاجَمَتْهُمَا. لَقَدْ أَثَارَتْ رَائِحَةُ الطَّعَامِ جُنُونَهَا، وَوَجَدَ بيرو أَحَدَهَا يَأْكُلُ مِنَ الصُّنْدُوقِ الَّذِي يُخَزِّنَانِ فِيهِ كُلَّ الطَّعَامِ. فَطَارَدَهُ بيرو وَأَبْعَدَهُ عَنِ الصُّنْدُوقِ، وَلَكِنَّ الصُّنْدُوقَ وَقَعَ

عَلَى الْأَرْضِ وَسَارَعَتِ الْعَدِيدُ مِنَ الْكِلَابِ الْجَامِحَةِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ، وَكَانَتْ تَنْبَحُ وَتَعْوِي وَبيرو وَفرانسوا يُحَاوِلَانِ إِبْعَادَهَا عَنِ الطَّعَامِ.

وَفِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ خَرَجَتْ كِلَابُ الْمُعَسْكَرِ الَّتِي تَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ مِنَ الْحُفَرِ الَّتِي تَنَامُ فِيهَا وَهِيَ تَعْتَرِيهَا الدَّهْشَةُ، فَانْقَضَّتِ الْكِلَابُ الْجَامِحَةُ الَّتِي اجْتَاحَتِ الْمُعَسْكَرَ عَلَيْهَا. لَمْ يَرَ باك كِلَابًا مِثْلَ تِلْكَ قَطُّ فِي حَيَاتِهِ، فَقَدْ كَانَتْ نَحِيفَةً لِلْغَايَةِ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ كَانَ بِإِمْكَانِهِ رُؤْيَةُ هَيَاكِلِهَا الْعَظْمِيَّةِ بَارِزَةً تَحْتَ جُلُودِهَا، وَكَانَ الشَّرَرُ يَنْبَعِثُ مِنْ عُيُونِهَا وَتُكَشِّرُ عَنْ أَنْيَابِهَا، لَقَدْ جَعَلَهَا الْجُوعُ مُرْعِبَةً لِلْغَايَةِ، وَكَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَصُدُّوا هُجُومَهَا. فِي الْجَوْلَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَعْرَكَةِ دَفَعَتِ الْكِلَابُ الْجَامِحَةُ كِلَابَ الْمُعَسْكَرِ نَحْوَ الْحَائِطِ الصَّخْرِيِّ، وَحَاوَلَ ثَلَاثَةٌ مِنْ كِلَابِ الهاسكي الِاشْتِبَاكَ مَعَ باك، وَكَانَ صَوْتُ الْمَعْرَكَةِ مُرْعِبًا، وَكَانَ بيلي يَصِيحُ، وَديف وَسوليكس يُقَاتِلَانِ بِشَجَاعَةٍ جَنْبًا إِلَى جَنْبٍ، وَجو يَنْبَحُ كَوَحْشٍ هَائِجٍ، وَبايك يَرْكُضُ هُنَا وَهُنَاكَ مِنْ كَلْبٍ إِلَى آخَرَ. أَثَارَتِ الْمَعْرَكَةُ جُنُونَ باك وَحَمَاسَهُ، وَحَوَّلَتْهُ إِلَى كَلْبٍ شَرِسٍ. طَارَدَ باك أَحَدَ الْكِلَابِ وَأَبْعَدَهُ ثُمَّ شَعَرَ بِآخَرَ بِجَانِبِهِ؛ لَقَدْ كَانَ سبيتز يُحَاوِلُ أَنْ يَسْتَغِلَّ ظُرُوفَ الْمَعْرَكَةِ لِيُهَاجِمَهُ مَرَّةً أُخْرَى مِنَ الْجَانِبِ.

طَارَدَ بيرو وَفرانسوا الْكِلَابَ الْجَامِحَةَ حَتَّى أَخْرَجُوهَا مِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ الَّذِي يَخُصُّهُمَا مِنَ الْمُعَسْكَرِ، ثُمَّ انْدَفَعَا نَحْوَ كِلَابِهِمَا لِيُسَاعِدُوهَا. ابْتَعَدَتِ الْكِلَابُ الْجَامِحَةُ الَّتِي كَانَتْ تَتَضَوَّرُ جُوعًا، وَنَجَحَ باك فِي تَحْرِيرِ نَفْسِهِ. وَلَكِنْ مَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ وَاحِدَةٌ حَتَّى رَكَضَتِ الْكِلَابُ الْجَامِحَةُ نَحْوَ صُنْدُوقِ الطَّعَامِ مَرَّةً أُخْرَى وَجَرَى الرَّجُلَانِ لِيُنْقِذَاهُ، وَعِنْدَمَا أَبْعَدَا الْكِلَابَ عَنْهُ عَادَتْ لِتُهَاجِمَ الْقَطِيعَ مِنْ جَدِيدٍ. كَانَ بيلي مَرْعُوبًا لِلْغَايَةِ، فَاسْتَجْمَعَ شَجَاعَتَهُ وَقَفَزَ مِنْ فَوْقِ حَلْقَةِ الْكِلَابِ الْجَامِحَةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِالْقَطِيعِ وَجَرَى بَعِيدًا فَوْقَ الثُّلُوجِ، وَتَبِعَهُ بايك وَداب، وَمِنْ وَرَائِهِمَا بَقِيَّةُ الْقَطِيعِ. وَبَيْنَمَا كَانَ باك يَسْتَعِدُّ لِيَقْفِزَ هُوَ الْآخَرُ لِيَلْحَقَ بِهِمْ، رَأَى بِطَرْفِ عَيْنَيْهِ سبيتز وَهُوَ يَنْدَفِعُ نَحْوَهُ لِيَطْرَحَهُ أَرْضًا، وَلَكِنَّهُ نَجَحَ فِي أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَلْحَقَ بِبَقِيَّةِ كِلَابِ الْقَطِيعِ الَّتِي كَانَتْ تَعْبُرُ الْبُحَيْرَةَ الْمُتَجَمِّدَةَ.

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الْوَقْتِ، تَجَمَّعَتِ الْكِلَابُ التِّسْعَةُ الَّتِي كَانَتْ تَجُرُّ مِزْلَجَةَ بيرو وَفرانسوا وَبَحَثَتْ عَنْ مَأْوًى لَهَا فِي الْغَابَةِ. وَكَانَتِ الْكِلَابُ الشَّرِسَةُ قَدْ تَوَقَّفَتْ عَنْ مُطَارَدَتِهَا، وَلَكِنَّ كِلَابَ الْقَطِيعِ كَانَتْ تَشْعُرُ أَنَّهَا فِي حَالَةٍ مُزْرِيَةٍ، فَقَدْ كَانَتْ جَمِيعُهَا مُتْعَبَةً وَمُصَابَةً

بِجُرُوحٍ مِنْ أَثَرِ الْمَعْرَكَةِ. وَعِنْدَ بُزُوغِ ضَوْءِ الْفَجْرِ، عَادَتِ الْكِلَابُ إِلَى الْمُعَسْكَرِ وَلَمْ يَجِدُوا أَثَرًا لِلْكِلَابِ الشَّرِسَةِ الَّتِي اجْتَاحَتْهُ، وَلَكِنَّ بيرو وَفرانسوا كَانَا غَاضِبَيْنِ، إِذْ فَقَدَا نِصْفَ مَخْزُونِهِمَا مِنَ الطَّعَامِ. وَالْتَهَمَتْ كِلَابُ الهاسكي أَجْزَاءً مِنَ السُّرُوجِ وَغِطَاءَ الْمِزْلَجَةِ، فَلَمْ يُفْلِتْ شَيْءٌ — مَهْمَا كَانَ تَنَاوُلُهُ صَعْبًا — مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهَا؛ فَقَدْ أَكَلَتْ حِذَاءَ بيرو الْجِلْدِيَّ، وَجُزْءًا قَدْرُهُ قَدَمَانِ تَقْرِيبًا مِنْ طَرَفِ السَّوْطِ الَّذِي يَسْتَخْدِمُهُ فرانسوا، فَقَدْ كَانَ يَتَأَمَّلُهُ فِي حُزْنٍ عِنْدَمَا وَصَلَتْ كِلَابُ الْمِزْلَجَةِ إِلَى الْمُعَسْكَرِ.

قَالَ فرانسوا بِرِقَّةٍ: «آهِ يَا أَصْدِقَائِي، هَلْ جُرِحْتُمْ؟ رُبَّمَا جُرُوحُهُمْ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَعُودُوا إِلَى جَرِّ الْمِزْلَجَةِ قَرِيبًا، مَا رَأْيُكَ يَا بيرو؟»

هَزَّ سَاعِي الْبَرِيدِ رَأْسَهُ بِالنَّفْيِ، فَلَا تَزَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ داوسون أَرْبَعُمِائَةِ مِيلٍ، وَلَيْسَ بِمَقْدُورِهِ أَنْ يَنْتَظِرَ. قَضَى الرَّجُلَانِ سَاعَتَيْنِ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ الَّذِي تَخَلَّلَتْهُ الْعِبَارَاتُ الْغَاضِبَةُ لِإِصْلَاحِ السُّرُوجِ وَإِعَادَتِهَا إِلَى هَيْئَتِهَا السَّابِقَةِ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَتْ كِلَابُ الْقَطِيعِ الْمَجْرُوحَةُ الرِّحْلَةَ، وَكَانَتْ تُجَاهِدُ فِي أَلَمٍ وَهِيَ تَقْطَعُ أَصْعَبَ جُزْءٍ فِي الطَّرِيقِ، فَلَمْ يَقْطَعِ الْقَطِيعُ مِنْ قَبْلُ طَرِيقًا عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنَ الصُّعُوبَةِ، إِنَّهُ أَصْعَبُ جُزْءٍ فِي الطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى داوسون.

كَانَ ذَلِكَ الْجُزْءُ مِنْ نَهْرِ يوكون وَالَّذِي يَمْتَدُّ لِثَلَاثِينَ مِيلًا هَائِلًا، وَلَمْ تَتَجَمَّدْ مِيَاهُهُ الْمُضْطَرِبَةُ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ جَلِيدٌ سِوَى فِي الْمَنَاطِقِ الضَّحْلَةِ بِالْقُرْبِ مِنْ حَافَتَيِ النَّهْرِ أَوْ فِي الْمَنَاطِقِ الْهَادِئَةِ الَّتِي كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَاسَكَ فِيهَا الثَّلْجُ. احْتَاجَ الْقَطِيعُ لِسِتَّةِ أَيَّامٍ مِنَ الْعَمَلِ الْمُضْنِي لِكَيْ يَقْطَعُوا الثَّلَاثِينَ مِيلًا الْمُرْهِقَةَ تِلْكَ. كُلُّ خُطْوَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ كَانَتْ تُمَثِّلُ خَطَرًا جَدِيدًا لِلْكِلَابِ وَالرَّجُلَيْنِ، فَأَكْثَرُ مِنْ مَرَّةٍ يَتَحَطَّمُ الْجَلِيدُ الَّذِي يَمْشِي عَلَيْهِ بيرو مُتَقَدِّمًا الْفَرِيقَ وَيَقَعُ فِي الْمَاءِ. وَتُنْقِذُهُ الْعَصَا الطَّوِيلَةُ الَّتِي كَانَ يُمْسِكُ بِهَا حَتَّى تَسْقُطَ بِعَرْضِ الْحُفْرَةِ الَّتِي يَصْنَعُهَا جَسَدُهُ، وَلَكِنَّ بُرُودَةَ الْجَوِّ كَانَتْ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَقَعُ فِيهَا بيرو فِي الْمَاءِ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُشْعِلَ نَارًا حَتَّى تَجِفَّ مَلَابِسُهُ، وَإِلَّا تَجَمَّدَ جَسَدُهُ حَتَّى الْمَوْتِ.

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ يُثِيرُ خَوْفَ بيرو أَوْ يُثَبِّطُ مِنْ عَزِيمَتِهِ، وَلِذَلِكَ اخْتَارَتْهُ الْحُكُومَةُ لِيَنْقُلَ الْمُرَاسَلَاتِ، فَقَدْ كَانَ يَتَعَرَّضُ لِكُلِّ أَنْوَاعِ الْمَخَاطِرِ، وَكَانَ يَتَقَدَّمُ الصُّفُوفَ وَسْطَ

الصَّقِيعِ وَيَعْمَلُ بِجِدٍّ مُنْذُ بُزُوغِ الْفَجْرِ وَحَتَّى هُبُوطِ الظَّلَامِ. وَكَانَ يَحُثُّ الْقَطِيعَ عَلَى السَّيْرِ بِسُرْعَةٍ عِنْدَ طَبَقَاتِ الْجَلِيدِ الرَّفِيعَةِ.

وَذَاتَ مَرَّةٍ، تَحَطَّمَتْ طَبَقَةُ الْجَلِيدِ الَّتِي كَانَتْ تَسِيرُ الْمِزْلَجَةُ فَوْقَهَا وَوَقَعَ ديف وَباك فِي الْمَاءِ، كَانَا يَتَجَمَّدَانِ عِنْدَمَا أَخْرَجَهُمَا الرَّجُلَانِ مِنَ الْمَاءِ. فَأَشْعَلَ بيرو وَفرانسوا نَارًا لِتَدْفِئَتِهِمَا. وَكَانَ الثَّلْجُ يُغَطِّي جَسَدَ الْكَلْبَيْنِ فَجَعَلَاهُمَا يَرْكُضَانِ حَوْلَ النَّارِ حَتَّى يَعْرِقَا وَيَذُوبَ الثَّلْجُ عَنْهُمَا، كَانَا يَرْكُضَانِ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ جِدًّا مِنَ النَّارِ حَتَّى إِنَّهَا لَسَعَتْ فِرَاءَهُمَا.

وَمَرَّةً أُخْرَى وَقَعَ سبيتز فِي الْمَاءِ، بَعْدَ أَنْ تَحَطَّمَ الْجَلِيدُ الَّذِي كَانَ يَسِيرُ فَوْقَهُ، وَجَرَّ كُلَّ مَنْ كَانَ وَرَاءَهُ حتَّى وَصَلَ إِلَى باك، وَلَكِنَّ باك ظَلَّ يُعَافِرُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْوَرَاءِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ وَهُوَ يُمْسِكُ حَافةَ الْجَلِيدِ الزَّلِقَةِ بِحَوافِرِ قَدَمَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ وَالْجَلِيدُ يَهْتَزُّ وَيَتَكَسَّرُ مِنْ حَوْلِهِ. وَمِن خَلْفِ باك كَانَ ديف يُحَاوِلُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْوَرَاءِ أَيْضًا، وَمِنْ خَلْفِ الْمِزْلَجَةِ كَانَ فرانسوا يَجْذِبُهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ هُوَ الْآخَرُ.

نَجَحَ بيرو فِي الصُّعُودِ فَوْقَ جُرُفٍ صَخْرِيٍّ، وَاسْتَطَاعَ الرَّجُلَانِ أَنْ يَسْحَبَا الْكِلَابَ مِنَ الْمَاءِ مُسْتَخْدِمَيْنِ كُلَّ قِطْعَةٍ مِنَ الْحَبْلِ وَالسَّرْجِ مَجْدُولَيْنِ مَعًا. وَبِنَهَايَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، لَمْ يَكُنِ الْفَرِيقُ قَدْ قَطَعَ سِوَى رُبْعِ مِيلٍ.

عِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى نَهْرٍ يُعْرَفُ بِنَهْرِ هوتالينكوا — حَيْثُ كَانَتْ طَبَقَةُ الْجَلِيدِ أَكْثَرَ سُمْكًا — كَانَ باك مُنْهَكًا، وَكَذَلِكَ بَقِيَّةُ الْكِلَابِ. وَلَكِنَّ بيرو جَعَلَهَا تَبْدَأُ رِحْلَتَهَا قَبْلَ مِيعَادِهَا الْمُعْتَادِ وَأَخَّرَ مِيعَادَ التَّوَقُّفِ حَتَّى يُعَوِّضَ الْوَقْتَ الَّذِي ضَاعَ. فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ قَطَعَ الْفَرِيقُ مَسَافَةً تُقَدَّرُ بِخَمْسَةٍ وَثَلَاثِينَ مِيلًا حَتَّى وَصَلَ إِلَى نَهْرِ سالمون الْكَبِيرِ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي قَطَعَ الْفَرِيقُ مَسَافَةً مُمَاثِلَةً حَتَّى بَلَغَ نَهْرَ سالمون الصَّغِيرَ. أَمَّا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ، قَطَعَ الْفَرِيقُ أَرْبَعِينَ مِيلًا حَتَّى أَصْبَحُوا بِالْقُرْبِ مِنْ مَكَانٍ يُعْرَفُ بِاسْمِ فايف فنجرز.

لَمْ تَكُنْ أَقْدَامُ باك فِي مِثْلِ خُشُونَةِ أَقْدَامِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، فَقَدْ كَانَتْ أَقْدَامُهُ نَاعِمَةً مِنَ الْحَيَاةِ الرَّغْدَةِ الَّتِي كَانَ يَعِيشُهَا فِي بَيْتِ الْقَاضِي ميلر. ظَلَّ باك يَعْرُجُ طَوَالَ الْيَوْمِ، وَعِنْدَمَا يُخَيِّمُ الْفَرِيقُ كَانَ يَسْتَلْقِي وَكَأَنَّهُ نَائِمٌ. وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ يَتَضَوَّرُ جُوعًا، لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْهَضَ وَيَمْشِيَ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى حِصَّتِهِ مِنَ الْأَسْمَاكِ الَّتِي كَانَ فرانسوا يَأْتِيهِ بِهَا. وَكَانَ فرانسوا يُدَلِّكُ أَقْدَامَ باك لِنِصْفِ سَاعَةٍ كُلَّ لَيْلَةٍ بَعْدَ الْعَشَاءِ، بَلْ وَقَطَعَ

الْجُزْءَ الْعُلْوِيَّ مِنْ حِذَائِهِ الْجِلْدِيِّ لِيَصْنَعَ لِباك أَحْذِيَةً جِلْدِيَّةً صَغِيرَةً لِأَقْدَامِهِ الْأَرْبَعَةِ، وَقَدْ أَرَاحَتْهُ تِلْكَ الْأَحْذِيَةُ كَثِيرًا. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، اسْتَطَاعَ باك أَنْ يَنْتَزِعَ ابْتِسَامَةً مِنْ بيرو، عِنْدَمَا نَسِيَ فرانسوا الْأَحْذِيَةَ فَاسْتَلْقَى باك عَلَى ظَهْرِهِ وَأَخَذَ يُحَرِّكُ أَقْدَامَهُ فِي الْهَوَاءِ رَافِضًا أَنْ يَتَحَرَّكَ دُونَ أَنْ يَلْبَسَهَا. وَلَكِنْ بِمُرُورِ الْوَقْتِ فِي الرِّحْلَةِ، أَصْبَحَتْ أَقْدَامُ باك أَكْثَرَ صَلَابَةً مِنَ الرَّكْضِ عَلَى الطَّرِيقِ، وَتَخَلَّصَ مِنَ الْأَحْذِيَةِ الْجِلْدِيَّةِ الْبَالِيَةِ.

وَفِي صَبَاحِ أَحَدِ الْأَيَّامِ، وَبَيْنَمَا كَانَتِ الْكِلَابُ تَرْتَدِي السُّرُوجَ، حَدَثَ شَيْءٌ غَرِيبٌ مِنْ كَلْبَةٍ تُدْعَى دوللي — وَالَّتِي لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا كَهَذَا مِنْ قَبْلُ — إِذْ فَقَدَتْ دوللي أَعْصَابَهَا بِشَكْلٍ مُفَاجِئٍ. فِي الْبِدَايَةِ أَطْلَقَتْ دوللي عُوَاءً طَوِيلًا وَحَزِينًا أَثَارَ الرُّعْبَ فِي نُفُوسِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، ثُمَّ قَفَزَتْ مُتَوَجِّهَةً نَحْوَ باك، لَمْ يَكُنْ باك قَدْ رَأَى مِنْ قَبْلُ كَلْبًا يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا غَيْرَ طَبِيعِيٍّ وَرَكَضَ مُبْتَعِدًا فِي ذُعْرٍ. وَعَلَى الْفَوْرِ، بَدَأَ يَرْكُضُ بِسُرْعَةٍ وَمِنْ خَلْفِهِ دوللي الَّتِي كَانَتْ عَلَى بُعْدِ قَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ. كَانَ باك خَائِفًا لِلْغَايَةِ وَيَرْكُضُ بِسُرْعَةٍ حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعِ اللِّحَاقَ بِهِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ غَاضِبَةً لِلْغَايَةِ — لَيْسَ لِسَبَبٍ سِوَى أَنَّهَا مُتْعَبَةٌ — فَلَمْ يَسْتَطِعْ باك أَنْ يُفْلِتَ مِنْهَا. رَكَضَ باك عَبْرَ أَشْجَارِ الْجَزِيرَةِ، وَعَبَرَ نَهْرًا صَغِيرًا مُمْتَلِئًا بِالْجَلِيدِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَزِيرَةٍ أُخْرَى، وَوَاصَلَ الرَّكْضَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى جَزِيرَةٍ ثَالِثَةٍ، ثُمَّ عَادَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى النَّهْرِ الرَّئِيسِيِّ الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يَعْبُرَهُ فِي يَأْسٍ. وَمِنْ بَعِيدٍ، نَادَاهُ فرانسوا فَجَرَى باك نَحْوَهُ وَدوللي لَا تَزَالُ عَلَى بُعْدِ قَفْزَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ. كَانَ باك يَلْهَثُ بِشِدَّةٍ وَوَضَعَ كُلَّ ثِقَتِهِ فِي الرَّجُلِ. وَكَانَ فرانسوا يُمْسِكُ حَبْلًا فِي يَدِهِ، وَبِمُجَرَّدِ أَنْ عَبَرَ باك مِنْ أَمَامِهِ أَوْقَعَ دوللي بِالْحَبْلِ وَحَمَلَهَا بَعِيدًا.

كَانَ باك مُنْهَكًا لِلْغَايَةِ، وَأَخَذَ يَتَرَنَّحُ أَمَامَ الْمِزْلَجَةِ وَهُوَ يَلْهَثُ لِالْتِقَاطِ أَنْفَاسِهِ وَفِي حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا. وَكَانَتْ هَذِهِ فُرْصَةَ سبيتز؛ فَانْقَضَّ عَلَى باك وَحَاوَلَ أَنْ يَطْرَحَهُ أَرْضًا وَيَعَضَّهُ، وَكَانَ عَلَى فرانسوا أَنْ يَجْذِبَ سبيتز بَعِيدًا عَنْهُ.

قَالَ بيرو: «إِنَّ سبيتز هَذَا كَلْبٌ وَضِيعٌ، يَوْمًا مَا سَيَنَالُ مِنْ باك.»

فَرَدَّ عَلَيْهِ فرانسوا قَائِلًا: «إِنَّ باك هَذَا وَضِيعٌ أَكْثَرَ مِنْهُ، لَقَدْ كُنْتُ أُرَاقِبُهُ، وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ سَيَفْقِدُ صَوَابَهُ فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، وَسَوْفَ يُمَزِّقُ سبيتز هَذَا إِرْبًا عَلَى الْجَلِيدِ.»

الفصل الخامس

الْغَرِيمَانِ

مُنْذُ آخِرِ مَرَّةٍ تَعَارَكَا فِيهَا وَالْحَرْبُ مُشْتَعِلَةٌ بَيْنَ الْكَلْبَيْنِ. فَقَدْ كَانَ الْقَلَقُ يُسَاوِرُ سبيتز — وَهُوَ الْقَائِدُ وَزَعِيمُ الْقَطِيعِ — مِنْ أَنْ يَأْخُذَ هَذَا الْكَلْبُ الْجَنُوبِيُّ الْغَرِيبُ مَكَانَهُ. وَقَدْ كَانَ باك بِالْفِعْلِ غَرِيبًا بِالنِّسْبَةِ لَهُ، فَقَدْ قَابَلَ سبيتز الْكَثِيرَ مِنَ الْكِلَابِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُظْهِرْ أَيُّ كَلْبٍ مِنْهَا الْقُوَّةَ سَوَاءً فِي الْمُعَسْكَرِ أَوْ أَثْنَاءِ رِحْلَاتِ السَّفَرِ، كَانَتْ جَمِيعُهَا ضَعِيفَةً لِلْغَايَةِ، لَمْ تَسْتَطِعْ تَحَمُّلَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ وَالصَّقِيعِ وَالْجُوعِ. لَكِنَّ باك كَانَ مُخْتَلِفًا؛ فَكَانَ يُضَاهِي كِلَابَ الهاسكي فِي الْقُوَّةِ وَالْوَحْشِيَّةِ وَالدَّهَاءِ، كَانَ كَلْبًا عَظِيمًا وَمَا جَعَلَهُ يُمَثِّلُ خُطُورَةً أَكْبَرَ هُوَ أَنَّ تَجْرِبَتَهُ مَعَ الرَّجُلِ ذِي السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ عَلَّمَتْهُ أَنْ يَتَحَكَّمَ فِي غَضَبِهِ وَأَنْ يَكُونَ صَبُورًا. كَانَ ذَكِيًّا وَجَعَلَتْهُ قُدْرَتُهُ عَلَى الِانْتِظَارِ عَلَى الْقَدْرِ نَفْسِهِ مِنَ الدَّهَاءِ كَأَكْثَرِ الْكِلَابِ شَرَاسَةً.

كُلُّ الْكِلَابِ كَانَتْ تَعْرِفُ أَنَّ رَحَى الْحَرْبِ سَوْفَ تَدُورُ بَيْنَ باك وَسبيتز عَلَى قِيَادَةِ الْقَطِيعِ، فَقَدْ كَانَ باك يُرِيدُ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ. لَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ بِدَاخِلِهِ بِنَوْعٍ خَاصٍّ مِنَ الْفَخْرِ، وَهُوَ مَا شَعَرَتْ بِهِ كُلُّ الْكِلَابِ الْأُخْرَى الَّتِي كَانَتْ تُسَافِرُ مَعَهُ. كَانَ هَذَا الْفَخْرُ هُوَ الَّذِي يَدْفَعُهَا لِأَنْ تَعْمَلَ بِجِدٍّ وَأَلَّا تَسْتَسْلِمَ. وَذَلِكَ الْفَخْرُ هُوَ مَا كَانَ يُغَيِّرُ طَبِيعَةَ ديف وَسوليكس الْوَضِيعَةَ كُلَّ صَبَاحٍ وَيُحَوِّلُهُمَا مِنْ كَلْبَيْنِ مُتَجَهِّمَيْنِ وَخَبِيثَيْنِ إِلَى كَلْبَيْنِ طَمُوحَيْنِ وَمُتَحَمِّسَيْنِ، هَذَا الْفَخْرُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَدْفَعُهُمَا إِلَى الِاسْتِمْرَارِ كُلَّ يَوْمٍ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِسبيتز، فَقَدْ كَانَ هَذَا الْفَخْرُ هُوَ الَّذِي يَصْنَعُ مِنْهُ قَائِدًا، وَهُوَ أَيْضًا مَا يَحْدُوهُ إِلَى مُعَاقَبَةِ كُلِّ الْكِلَابِ الَّتِي لَا تُوَاكِبُ الْقَطِيعَ أَوْ تُحَاوِلُ أَنْ تَتَهَرَّبَ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ، وَكَانَ هَذَا الْفَخْرُ أَيْضًا هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَخْشَى باك.

فَقَدْ كَانَ باك يُمَثِّلُ تَهْدِيدًا عَلَى سبيتز بِصِفَتِهِ قَائِدَ الْقَطِيعِ طَوَالَ الْوَقْتِ؛ إِذْ كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ مُعَاقَبَةِ الْكِلَابِ الَّتِي لَا تَعْمَلُ بِجِدٍّ. وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي تَسَاقَطَتِ الثُّلُوجُ بِغَزَارَةٍ، وَفِي الصَّبَاحِ لَمْ يَظْهَرْ بايك — الَّذِي لَمْ يَكُنْ يُحِبُّ الْعَمَلَ الشَّاقَّ قَطُّ — وَاخْتَبَأَ فِي حُفْرَتِهِ تَحْتَ طَبَقَةٍ مِقْدَارُهَا قَدَمٌ مِنَ الثَّلْجِ. نَادَى فرانسوا عَلَيْهِ وَأَخَذَ يَبْحَثُ عَنْهُ، فَاسْتَشَاطَ سبيتز غَضَبًا وَأَخَذَ يَطُوفُ الْمُعَسْكَرَ فِي غَضَبٍ يَشْتَمُّ الْجَلِيدَ وَيَحْفِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَكَانَ يُزَمْجِرُ بِصَوْتٍ عَالٍ حَتَّى إِنَّ بايك سَمِعَهُ مِنْ مَخْبَئِهِ وَكَانَ يَرْتَجِفُ مِنَ الرُّعْبِ.

وَلَكِنْ عِنْدَمَا وَجَدَهُ سبيتز وَحَاوَلَ أَنْ يُعَاقِبَهُ، قَفَزَ باك بَيْنَهُمَا وَدَفَعَ سبيتز إِلَى الْوَرَاءِ، وَكَانَ بايك يَرْتَجِفُ مِنَ الْخَوْفِ، وَلَكِنَّهُ حِينَمَا رَأَى مَا حَدَثَ شَعَرَ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ وَقَفَزَ عَلَى سبيتز. لَمْ يَعُدْ باك يَذْكُرُ مَعْنَى الْمَعْرَكَةِ الْعَادِلَةِ، فَانْقَضَّ هُوَ الْآخَرُ عَلَى سبيتز، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا فَرَّقَهُمْ فرانسوا وَعَاقَبَ باك، فِي حِينِ عَاقَبَ سبيتز بايك.

كُلَّمَا اقْتَرَبَ الْقَطِيعُ أَكْثَرَ مِنْ داوسون، اسْتَمَرَّ باك فِي مَنْعِ سبيتز مِنْ مُعَاقَبَةِ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِذَكَاءٍ إِذْ كَانَ يَنْتَظِرُ حِينَمَا يَبْتَعِدُ فرانسوا. بَدَأَ الْكَثِيرُ مِنَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى — فِيمَا عَدَا ديف وَسوليكس — فِي الْخُرُوجِ عَنِ السَّيْطَرَةِ، وَلَمْ تَعُدِ الْأُمُورُ تَسِيرُ عَلَى مَا يُرَامُ؛ فَأَصْبَحَتِ الْكِلَابُ تَتَعَارَكُ طَوَالَ الْوَقْتِ وَتُسَبِّبُ الْمُشْكِلَاتِ، وَكَانَ باك هُوَ دَائِمًا السَّبَبُ، وَكَانَ يَنْجَحُ دَائِمًا فِي إِبْقَاءِ فرانسوا مَشْغُولًا. وَمِنْ جَانِبِهِ، كَانَ فرانسوا يَعْرِفُ أَنَّ مَعْرَكَةً شَرِسَةً سَتَدُورُ بَيْنَ باك وَسبيتز يَوْمًا مَا، وَكُلَّمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ الشِّجَارِ بَيْنَ الْكِلَابِ ظَنَّ أَنَّهُمَا يَشْتَبِكَانِ مُجَدَّدًا.

وَلَكِنْ لَمْ تَسْنَحِ الْفُرْصَةُ أَمَامَهُمَا قَطُّ، وَوَصَلَ الْقَطِيعُ إِلَى داوسون بَعْدَ ظَهِيرَةِ أَحَدِ الْأَيَّامِ الْكَئِيبَةِ، وَلَا يَزَالُ الْجَمِيعُ يَتَرَقَّبُونَ الْمَعْرَكَةَ الْكُبْرَى. وَفِي داوسون، كَانَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ وَعَدَدٌ لَا يُحْصَى مِنَ الْكِلَابِ كُلُّهُمْ يَعْمَلُونَ بِجِدٍّ. فَطَوَالَ النَّهَارِ كَانَتِ الْكِلَابُ تَجُرُّ الْمِزْلَجَاتِ فِي صُفُوفٍ طَوِيلَةٍ فَوْقَ الطَّرِيقِ الرَّئِيسِيِّ جِيئَةً وَذَهَابًا، وَفِي اللَّيْلِ كَانَ باك يَسْمَعُ رَنِينَ الْأَجْرَاسِ الْمُعَلَّقَةِ فِي رِقَابِ الْكِلَابِ وَهِيَ تَجْرِي. كَانَتِ الْكِلَابُ تَجُرُّ جُذُوعَ الشَّجَرِ اللَّازِمَةَ لِبِنَاءِ الْأَكْوَاخِ أَوْ إِشْعَالِ النَّارِ إِلَى الْمَنَاجِمِ، فَقَدْ كَانَتِ الْكِلَابُ تَقُومُ بِكَافَّةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَانَتْ تَقُومُ بِهَا الْخُيُولُ فِي مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر بِوَادِي سانتا كلارا. كَانَ باك يُقَابِلُ أَحْيَانًا بَعْضَ الْكِلَابِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَلَكِنَّ أَغْلَبَهَا كَانَ مِنْ فَصِيلَةِ الهاسكي الَّتِي تَرَبَّتْ

عَلَى هَذِهِ النَّوْعِيَّةِ مِنَ الْأَعْمَالِ مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهَا. وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ، كَانَتِ الْكِلَابُ تُغَنِّي مَعًا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فِي التَّاسِعَةِ ثُمَّ فِي الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ ثُمَّ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، وَكَانَتِ الْأُغْنِيَةُ غَرِيبَةً وَغَيْرَ مَأْلُوفَةٍ، وَكَانَ باك يُحِبُّ مُشَارَكَتَهُمْ.

وَقَدْ بَدَتْ تِلْكَ الْأُغْنِيَةُ الَّتِي تُغَنِّيهَا كِلَابُ الهاسكي شَدِيدَةَ الْحُزْنِ فِي ظِلِّ أَضْوَاءِ الشَّمَالِ الَّتِي تَلُوحُ فِي الْأُفُقِ، وَالَّتِي تَبْدُو مِثْلَ أَلْسِنَةِ النَّارِ وَالنُّجُومِ الْمُتَلَأْلِئَةِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الْمُتَجَمِّدَةِ تَحْتَ طَبَقَاتِ الثَّلْجِ؛ إِذْ كَانَتِ الْأُغْنِيَةُ تَتَخَلَّلُهَا صَيْحَاتٌ طَوِيلَةٌ وَشِبْهُ بُكَاءٍ. وَكَانَتْ تِلْكَ الْأُغْنِيَةُ أُغْنِيَةً قَدِيمَةً، وَاحِدَةٌ مِنْ أُولَى الْأُغْنِيَاتِ الَّتِي كَانَتْ كِلَابُ الهاسكي الْأَوَائِلُ تُغَنِّيهَا قَبْلَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ. وَعِنْدَمَا كَانَ باك يَشْتَرِكُ مَعَهَا فِي الْغِنَاءِ، كَانَ يَشْعُرُ بِالْغُمُوضِ وَالْخَوْفِ الَّذِي يَبُثُّهُ الظَّلَامُ وَالثُّلُوجُ.

تَرَكَ الْقَطِيعُ داوسون بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَانْطَلَقَ فَوْقَ طَرِيقِ يوكون عَائِدًا مِنْ حَيْثُ بَدَأَ إِلَى وَادِي ديا وَمِنْطَقَةِ سولت ووتر. كَانَ بيرو هَذِهِ الْمَرَّةَ يَحْمِلُ مُرَاسَلَاتٍ أَكْثَرَ أَهَمِّيَّةً مِنْ تِلْكَ الَّتِي جَاءَ بِهَا إِلَى داوسون. وَكَانَ يَفْتَخِرُ بِعَمَلِهِ مِثْلَمَا كَانَتْ كِلَابُهُ تَفْتَخِرُ بِعَمَلِهَا؛ لِذَا قَرَّرَ أَنَّ الْفَرِيقَ سَيَقْطَعُ الرِّحْلَةَ فِي وَقْتٍ قِيَاسِيٍّ، وَكَانَتْ لَدَيْهِ الْعَدِيدُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَجْعَلُهُ يُصَدِّقُ أَنَّ بِإِمْكَانِ كِلَابِهِ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ. فَالْأُسْبُوعُ الَّذِي ارْتَاحَتْ فِيهِ الْكِلَابُ سَاعَدَهَا عَلَى أَنْ تَسْتَرِدَّ عَافِيَتَهَا وَمَلَأَهَا بِالْقُوَّةِ وَالطَّاقَةِ. كَمَا أَصْبَحَ الطَّرِيقُ — الَّذِي كَانَ أَمْلَسَ لِلْغَايَةِ فِي رِحْلَةِ الذَّهَابِ — أَكْثَرَ صَلَابَةً بِفَضْلِ مُرُورِ الْفِرَقِ الْمُسَافِرَةِ الْأُخْرَى الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَهُمْ، كَمَا قَرَّرَتْ شُرْطَةُ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ أَنْ تَتْرُكَ الْغِذَاءَ وَالْمُؤَنَ لِلرِّجَالِ وَالْكِلَابِ فِي مَوْضِعَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَ الْفَرِيقُ يُسَافِرُ بِحِمْلٍ أَخَفَّ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي كَانَ يَحْمِلُهُ فِي رِحْلَةِ الذَّهَابِ.

فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ قَطَعَتِ الْكِلَابُ خَمْسِينَ مِيلًا، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي زَادَتْ مِنْ سُرْعَتِهَا عَلَى طَرِيقِ يوكون فِي طَرِيقِهَا إِلَى مَكَانٍ اسْمُهُ بيلي. وَلَكِنَّ السَّيْرَ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ جَلَبَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ لِفرانسوا؛ فَقَدْ كَانَ باك يُسَبِّبُ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَتَاعِبِ، وَلَمْ تَعُدِ الْكِلَابُ تَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ كَفَرِيقٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّهَا لَمْ تَعُدْ تَخْشَى سبيتز، فَقَدْ سَرَقَ مِنْهُ بايك نِصْفَ سَمَكَةٍ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي وَأَكَلَهَا فِي ابْتِهَاجٍ تَحْتَ حِمَايَةِ باك، وَفِي لَيْلَةٍ أُخْرَى تَعَارَكَ داب وَجو

مَعَ سبيتز وَاضْطُرَّ الْأَخِيرُ لِأَنْ يَسْتَسْلِمَ رُغْمَ أَنَّهُمَا كَانَا يَسْتَحِقَّانِ الْعِقَابَ. وَلَمْ يَكُنْ باك يَقْتَرِبُ مِنْ سبيتز دُونَ أَنْ يُزَمْجِرَ وَيَنْبَحَ مُتَوَعِّدًا، فِي الْحَقِيقَةِ، كَانَ باك يَتَصَرَّفُ كَالْمُتَنَمِّرِ.

وَنَظَرًا لِأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ قَائِدٌ وَاضِحٌ لِلْقَطِيعِ، زَادَتِ الْخِلَافَاتُ بَيْنَ الْكِلَابِ وَبَعْضِهَا، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَتْ أَصْوَاتُ النُّبَاحِ وَالزَّمْجَرَةِ تَمْلَأُ الْمُعَسْكَرَ. كَانَ ديف وَسوليكس هُمَا الْوَحِيدَانِ اللَّذَانِ بَقِيَا عَلَى حَالِهِمَا الَّذِي كَانَا عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ باك فِي إِثَارَةِ الْمُشْكِلَاتِ، وَلَكِنَّ الضَّجِيجَ كَانَ يُغْضِبُ الْكَلْبَيْنِ الْعَجُوزَيْنِ. وَكَانَ فرانسوا يَشْعُرُ بِالْغَضَبِ وَالْإِحْبَاطِ أَكْثَرَ مِنْهُمَا؛ إِذْ لَمْ يَعُدْ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يُسَيْطِرَ عَلَى الْكِلَابِ. فَبِمُجَرَّدِ أَنْ يُدِيرَ لَهَا ظَهْرَهُ تَبْدَأُ فِي الشِّجَارِ مَرَّةً أُخْرَى. وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَ باك يُسَاعِدُهُ فِي السَّيْطَرَةِ عَلَى الْكِلَابِ الْأُخْرَى، بِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ فرانسوا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ باك هُوَ السَّبَبُ فِي كُلِّ الْمَتَاعِبِ، وَلَكِنَّ باك كَانَ أَذْكَى مِنْ أَنْ يَدَعَ فرانسوا يُمْسِكُ بِهِ مُتَلَبِّسًا بِهَذِهِ الْجَرِيمَةِ. كَانَ باك يَعْمَلُ بِجِدٍّ فِي جَرِّ الْمِزْلَجَةِ، وَقَدْ أَصْبَحَ الْعَمَلُ مُمْتِعًا بِالنِّسْبَةِ لَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَمْتِعُ أَكْثَرَ بِإِثَارَةِ الْخِلَافَاتِ بَيْنَ الْكِلَابِ وَتَعْقِيدِ كُلِّ الْأُمُورِ.

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي بَعْدَ الْعَشَاءِ، عِنْدَ مَصَبِّ نَهْرِ تاهكينا، طَارَدَ داب أَرْنَبًا مِنْ أَرَانِبِ الثَّلْجِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِمْسَاكَ بِهِ، وَفِي ثَانِيَةٍ كَانَ الْقَطِيعُ كُلُّهُ يُطَارِدُ الْأَرْنَبَ مَعَهُ. وَعَلَى بُعْدِ مِائَةِ يَارْدَةٍ كَانَ هُنَاكَ مُعَسْكَرٌ لِشُرْطَةِ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ فِيهِ خَمْسُونَ كَلْبًا مِنْ كِلَابِ الهاسكي الْخَاصَّةِ بِهِمْ وَالَّتِي انْضَمَّتْ جَمِيعُهَا لِلْمُطَارَدَةِ. رَكَضَ الْأَرْنَبُ عَلَى طُولِ النَّهْرِ، وَقَادَ باك الْقَطِيعَ الْمُكَوَّنَ مِنْ سِتِّينَ كَلْبًا، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ اللِّحَاقَ بِالْأَرْنَبِ. شَعَرَ باك وَكَأَنَّهُ صَيَّادٌ مُحْتَرِفٌ، وَقَدْ أَحَبَّ هَذَا الشُّعُورَ، بَلْ وَشَعَرَ بِالْحَيَوِيَّةِ تَتَدَفَّقُ إِلَى عُرُوقِهِ كَمَا لَمْ يَشْعُرْ بِهَا مِنْ قَبْلُ.

وَلَكِنَّ سبيتز — الَّذِي كَانَ خَبِيثًا حَتَّى فِي الْمُطَارَدَاتِ — تَرَكَ الْقَطِيعَ وَسَلَكَ طَرِيقًا مُخْتَصَرًا عَبْرَ الْغَابَةِ. لَمْ يَكُنْ باك يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَبَيْنَمَا كَانَ يَنْعَطِفُ وَالْأَرْنَبُ لَا يَزَالُ أَمَامَهُ، رَأَى جَسَدًا آخَرَ يَنْقَضُّ مِنْ عَلَى تَلَّةٍ قَرِيبَةٍ. لَقَدْ كَانَ سبيتز، وَلَكِنَّ الْأَرْنَبَ نَجَحَ فِي الْفِرَارِ مِنْ جَانِبِهِ لِأَنَّ هَدَفَ سبيتز الْحَقِيقِيَّ كَانَ باك.

لَمْ يَصْرُخْ باك، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ أَيْضًا، بَلِ اصْطَدَمَ بِسبيتز بِقُوَّةٍ حَتَّى وَقَعَ الِاثْنَانِ، وَتَدَحْرَجَ الِاثْنَانِ وَسْطَ الثَّلْجِ. لَكِنَّ سبيتز هَبَّ وَاقِفًا بِسُرْعَةٍ كَمَا لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي بَادِئِ الْأَمْرِ.

عَلِمَ باك عَلَى الْفَوْرِ أَنَّ هَذِهِ هِيَ لَحْظَةُ الْمَعْرَكَةِ الْمُرْتَقَبَةِ. وَقَدْ بَدَا الْأَمْرُ بِرُمَّتِهِ مَأْلُوفًا بِالنِّسْبَةِ لِباك وَهُمَا يَدُورَانِ فِي حَلْقَاتٍ حَوْلَ بَعْضِهِمَا الْبَعْضِ وَيُزَمْجِرَانِ وَأُذُنَاهُمَا نَائِمَةٌ لِلْوَرَاءِ يَنْتَظِرَانِ فُرْصَةً لِلِانْقِضَاضِ. كَانَ كُلُّ شَيْءٍ سَاكِنًا فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ، وَالثُّلُوجُ تُغَطِّي الْغَابَةَ وَالْأَرْضَ. لَمْ يَتَحَرَّكْ أَيُّ شَيْءٍ. كَانَتْ أَنْفَاسُ الْكَلْبَيْنِ تَعْلُو بِبُطْءٍ فِي الْهَوَاءِ الْبَارِدِ، وَقَدْ وَقَفَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى فِي حَلْقَةٍ تُحِيطُ بِهِمَا وَقَدْ خَيَّمَ عَلَيْهَا الصَّمْتُ هِيَ الْأُخْرَى وَلَمَعَتْ عُيُونُهَا وَارْتَفَعَ صَوْتُ أَنْفَاسِهَا. لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ جَدِيدًا أَوْ غَرِيبًا بِالنِّسْبَةِ لِباك، بَلْ شَعَرَ أَنَّهُ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ.

كَانَ سبيتز مُقَاتِلًا ذَكِيًّا، كَمَا كَانَتْ لَدَيْهِ الْخِبْرَةُ؛ فَبَدْءًا مِنْ سبيتسبيرجين (حَيْثُ وُلِدَ) وَعَبْرَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ وَكَنَدَا وَالْأَرَاضِي الْقَاحِلَةِ، كَانَ قَدْ نَجَحَ فِي الْحِفَاظِ عَلَى مَكَانَتِهِ وَالْإِمْسَاكِ بِزِمَامِ السَّيْطَرَةِ أَمَامَ كُلِّ كَلْبٍ قَابَلَهُ، وَهَزَمَهُمْ جَمِيعًا.

حَاوَلَ باك أَنْ يَعَضَّ سبيتز وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْإِمْسَاكَ بِهِ، فَقَدْ كَانَ سبيتز يَصُدُّهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَمَا حَاوَلَ باك أَنْ يَنْقَضَّ عَلَى سبيتز أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَحَاوَلَ أَنْ يَدْفَعَ بِكَتِفِهِ كَتِفَ سبيتز وَيَطْرَحَهُ أَرْضًا. وَلَكِنْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ حَاوَلَ فِيهَا باك ذَلِكَ كَانَ سبيتز يَقْفِزُ بِرَشَاقَةٍ مُبْتَعِدًا وَيَعَضُّ باك وَهُوَ يَمُرُّ.

كَانَ الْقِتَالُ يَزْدَادُ عُنْفًا، وَكَانَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى تَنْتَظِرُ لِتَقْفِزَ عَلَى الْكَلْبِ الَّذِي سَيَسْقُطُ أَوَّلًا. وَبَدَأَ باك يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ وَبَدَأَ سبيتز يَنْدَفِعُ نَحْوَهُ. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، أَوْشَكَ باك عَلَى الْوُقُوعِ وَتَحَرَّكَتِ الدَّائِرَةُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْ سِتِّينَ كَلْبًا مُقْتَرِبَةً مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ سُرْعَانَ مَا هَبَّ وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ، فَعَادَتِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى تَجْلِسُ وَتَنْتَظِرُ مَا سَيَحْدُثُ.

كَانَ باك يَتَمَتَّعُ بِسِمَةٍ تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ بَدَأَ يَكْتَشِفُهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ أَلَا وَهِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّخَيُّلِ. فَكَانَ يُقَاتِلُ بِغَرِيزَتِهِ، وَلَكِنْ كَانَ يُمْكِنُهُ الْقِتَالُ بِعَقْلِهِ أَيْضًا. فَكَانَ يَنْدَفِعُ إِلَى الْأَمَامِ، كَمَا لَوْ أَنَّهُ سَيُحَاوِلُ اسْتِخْدَامَ حِيلَةِ الْكَتِفِ الَّتِي فَشِلَتْ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنْ عِنْدَ آخِرِ لَحْظَةٍ انْحَنَى وَاقْتَرَبَ مِنْ سبيتز وَأَمْسَكَ بِسَاقَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ بِأَسْنَانِهِ وَأَوْشَكَ أَنْ يَطْرَحَهُ أَرْضًا. وَكَانَ سبيتز يُكَافِحُ لِمُجَارَاتِهِ، وَرَأَى حَلْقَةَ الْكِلَابِ الصَّامِتَةِ وَالْعُيُونَ اللَّامِعَةَ تَقْتَرِبُ

مِنْهُ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي رَأَى بِهَا دَوَائِرَ مُمَاثِلَةً تُغْلَقُ عَلَى كِلَابٍ أُخْرَى فِي السَّابِقِ. وَلَكِنْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ هُوَ الْكَلْبَ الَّذِي ضُرِبَ.

لَمْ يَكُنْ باك لِيَتَوَقَّفَ، فَقَدِ اسْتَعَدَّ لِلِانْقِضَاضَةِ الْأَخِيرَةِ، وَكَانَتْ دَائِرَةُ الْكِلَابِ قَدِ اقْتَرَبَتْ بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِأَنْفَاسِ الْكِلَابِ عَلَى ظَهْرِهِ وَكَانَ يَرَاهُمْ خَلْفَ سبيتز عَلَى الْجَانِبَيْنِ، مُسْتَعِدِّينَ لِلِانْقِضَاضِ عَلَيْهِ وَيُرَاقِبُونَهُ. تَجَمَّدَ كُلُّ حَيَوَانٍ مِنْهُمْ فِي مَكَانِهِ وَكَأَنَّهُ تَحَوَّلَ إِلَى حَجَرٍ. كَانَ سبيتز الْوَحِيدَ الَّذِي يَنْتَفِضُ وَيَرْتَجِفُ وَهُوَ يَقِفُ مُتَرَنِّحًا عَلَى قَدَمَيْهِ الْمَجْرُوحَتَيْنِ. ثُمَّ انْقَضَّ عَلَيْهِ باك وَأَخِيرًا نَفَّذَ ضَرْبَةَ الْكَتِفِ وَأَطَاحَ بِسبيتز وَطَرَحَهُ أَرْضًا. انْقَضَّتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ الْأُخْرَى بِدَوْرِهَا وَهِيَ تَنْبَحُ بِصَوْتٍ عَالٍ وَتَعَضُّ سبيتز حَتَّى اضْطُرَّ لِلرَّكْضِ بَعِيدًا عَلَى الثُّلُوجِ إِلَى قَلْبِ الظَّلَامِ. وَقَفَ باك وَرَاقَبَهُ وَهُوَ يَهْرُبُ؛ لَقَدْ أَصْبَحَ الْبَطَلَ، الْكَلْبَ الْأَقْوَى، لَقَدْ هَزَمَ خَصْمَهُ، وَشَعَرَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَمْنَحُهُ شُعُورًا رَائِعًا.

«أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّ باك أَكْثَرُ دَهَاءً مِنْ سبيتز.» هَكَذَا قَالَ فرانسوا فِي الصَّبَاحِ التَّالِي عِنْدَمَا وَجَدَ سبيتز مَفْقُودًا وَرَأَى لَدَى باك جُرُوحًا مِنْ آثَارِ الْقِتَالِ. فَأَخَذَ باك بِالْقُرْبِ مِنَ النَّارِ وَأَشَارَ إِلَى جُرُوحِهِ عَلَى الضَّوْءِ الْمُنْبَعِثِ مِنْهَا.

قَالَ بيرو وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى الْجُرُوحِ وَآثَارِ الْعَضِّ عَلَى جَسَدِ باك: «سبيتز هَذَا يُقَاتِلُ بِضَرَاوَةٍ.»

فَأَجَابَهُ فرانسوا: «وَباك هَذَا يُقَاتِلُ بِضَرَاوَةٍ أَكْثَرَ، وَالْآنَ سَنَتَقَدَّمُ بِسُرْعَةٍ أَكْبَرَ؛ فَعَدَمُ وُجُودِ سبيتز يَعْنِي عَدَمَ وُجُودِ مُشْكِلَاتٍ. أَنَا وَاثِقٌ بِهَذَا.»

بَيْنَمَا كَانَ بيرو يَحْزِمُ الْمُخَيَّمَ وَيَضَعُ الْحُمُولَةَ عَلَى الْمِزْلَجَةِ، بَدَأَ فرانسوا فِي تَجْهِيزِ الْكِلَابِ بِالسُّرُوجِ. سَارَ باك إِلَى مَكَانِ سبيتز السَّابِقِ، وَلَكِنَّ فرانسوا كَانَ قَدْ جَلَبَ سوليكس إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ عِوَضًا عَنْهُ؛ إِذْ رَأَى فرانسوا أَنَّ سوليكس سَيَكُونُ الْقَائِدَ الْأَفْضَلَ الْآنَ؛ لِأَنَّهُ الْأَكْثَرُ خِبْرَةً. وَلَكِنَّ باك قَفَزَ عَلَى سوليكس وَأَزَاحَهُ إِلَى الْوَرَاءِ وَوَقَفَ مَكَانَهُ.

صَاحَ فرانسوا وَهُوَ يَضْرِبُ فَخِذَيْهِ بِمَرَحٍ: «مَا هَذَا؟ انْظُرْ إِلَى باك، لَقَدْ طَرَدَ سبيتز وَالْآنَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَخْذَ مَكَانِهِ. اذْهَبْ، ابْتَعِدْ عَنِ الطَّرِيقِ!» صَاحَ فرانسوا عَلَى باك وَلَكِنَّ الْكَلْبَ رَفَضَ أَنْ يَتَزَحْزَحَ مِنْ مَكَانِهِ.

أَطْلَقَ فرانسوا ضِحْكَةً أَعْلَى عِنْدَمَا رَأَى مِقْدَارَ الْعِنْدِ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِهِ باك، وَنَادَى عَلَى بيرو وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى باك الَّذِي تَجَمَّدَ فِي مَكَانِهِ وَكَأَنَّهُ تِمْثَالٌ: «يَا بيرو، مَا هَذَا الْكَلْبُ؟»

قَالَ بيرو: «كَلْبٌ جَيِّدٌ.»

قَالَ فرانسوا: «حَسَنًا، أَخْبِرْهُ أَنْتَ أَنْ يَتَنَحَّى إِذَنْ، أَظُنُّ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُرِيدُ الِاسْتِمَاعَ إِلَيَّ.»

قَالَ بيرو وَهُوَ يَضْحَكُ: «وَلَا أَنَا أَيْضًا.»

وَفِي النِّهَايَةِ، تَعِبَ فرانسوا مِنَ الِانْتِظَارِ، فَأَمْسَكَ باك مِنْ مُؤَخِّرَةِ عُنُقِهِ — وَرُغْمَ تَذَمُّرِهِ — أَزَاحَهُ فرانسوا إِلَى الْجَانِبِ وَوَضَعَ سوليكس فِي مَكَانِ الْقَائِدِ. لَمْ يُحِبَّ سوليكس الْأَمْرَ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يَخَافُ مِنْ باك.

كَانَ فرانسوا قَدِ اتَّخَذَ قَرَارَهُ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا أَدَارَ ظَهْرَهُ، طَرَدَ باك سوليكس مُجَدَّدًا مِنْ مَكَانِ الْقَائِدِ، وَكَانَ سوليكس مُتَلَهِّفًا لِلتَّخَلِّي عَنْ هَذَا الْمَكَانِ، فَاسْتَشَاطَ فرانسوا غَضَبًا.

صَاحَ فرانسوا: «سَأَقُومُ بِتَأْدِيبِكَ» وَاتَّجَهَ نَحْوَ باك مُمْسِكًا بِحَبْلٍ فِي يَدِهِ.

تَذَكَّرَ باك الرَّجُلَ ذَا السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ وَتَرَاجَعَ بِبُطْءٍ. لَمْ يُحَاوِلْ إِقْحَامَ نَفْسِهِ عِنْدَمَا وَضَعَ فرانسوا سوليكس فِي مَوْقِعِ الْقَائِدِ. دَارَ باك لِيَكُونَ بَعِيدًا عَنْ مُتَنَاوَلِ فرانسوا وَأَخَذَ يُزَمْجِرُ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ تُرَاقِبَانِ الْحَبْلَ وَهُوَ يَتَحَرَّكُ حَرَكَةً دَائِرِيَّةً حَتَّى يَسْتَطِيعَ تَفَادِيهُ إِذَا اسْتَخْدَمَهُ فرانسوا؛ فَلَقَدْ أَصْبَحَ باك حَكِيمًا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْحِبَالِ. تَابَعَ فرانسوا عَمَلَهُ وَنَادَى عَلَى باك عِنْدَمَا كَانَ مُسْتَعِدًّا لِوَضْعِهِ فِي مَكَانِهِ الْقَدِيمِ أَمَامَ ديف. تَرَاجَعَ باك خُطْوَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَتَبِعَهُ فرانسوا، فَتَرَاجَعَ باك مَرَّةً أُخْرَى، وَبَعْدَ عِدَّةِ مُحَاوَلَاتٍ، أَلْقَى فرانسوا الْحَبْلَ حَتَّى يُبَرْهِنَ لِباك أَنَّهُ لَنْ يَسْتَخْدِمَهُ وَلَكِنَّ باك لَمْ يَكُنْ يَنْوِي الْعَوْدَةَ إِلَى مَكَانِهِ الْقَدِيمِ. لَقَدْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْقَائِدَ، فَقَدِ اسْتَحَقَّ ذَلِكَ، وَلَمْ تَكُنْ أَيُّ مَكَانَةٍ أُخْرَى أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ تُسْعِدُهُ.

انْضَمَّ بيرو لِفرانسوا لِيُسَاعِدَهُ، وَظَلَّ الِاثْنَانِ يَرْكُضَانِ هُنَا وَهُنَاكَ لِمُدَّةِ سَاعَةٍ تَقْرِيبًا، فَكَانَا يُلْقِيَانِ بِالْحِبَالِ نَحْوَ باك وَلَكِنَّهُ يُرَاوِغُهَا، وَيَصْرُخَانِ فِي وَجْهِهِ، فَيَنْبَحُ فِي وَجْهَيْهِمَا وَيَحْرِصُ عَلَى الْبَقَاءِ بَعِيدًا عَنْ أَيْدِيهِمَا. لَمْ يُحَاوِلْ باك الْهُرُوبَ وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَرَاجَعُ وَيَدُورُ فِي أَرْجَاءِ الْمُخَيَّمِ لِيُرِيَهُمَا أَنَّهُ عِنْدَمَا يُعْطِيَانِهِ مَا يُرِيدُ سَيَعُودُ وَيُحْسِنُ التَّصَرُّفَ.

جَلَسَ فرانسوا وَحَكَّ رَأْسَهُ، بَيْنَمَا نَظَرَ بيرو إِلَى سَاعَتِهِ وَشَعَرَ بِالْغَضَبِ، فَقَدْ كَانَ الْوَقْتُ يَمُرُّ بِسُرْعَةٍ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْطَلِقُوا فِي طَرِيقِهِمْ قَبْلَ سَاعَةٍ. حَكَّ فرانسوا رَأْسَهُ مُجَدَّدًا ثُمَّ هَزَّهَا وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً لِبيرو الَّذِي هَزَّ كَتِفَيْهِ. فَقَدْ هُزِمَ الرَّجُلَانِ. ثُمَّ ذَهَبَ فرانسوا إِلَى سوليكس وَنَادَى عَلَى باك، فَضَحِكَ باك، كَمَا تَضْحَكُ الْكِلَابُ، وَلَكِنَّهُ بَقِيَ بَعِيدًا. أَعَادَ فرانسوا سوليكس إِلَى مَكَانِهِ الْقَدِيمِ مَرَّةً أُخْرَى، ثُمَّ نَادَى عَلَى باك ثَانِيَةً، وَمَرَّةً أُخْرَى ضَحِكَ باك وَبَقِيَ بَعِيدًا.

قَالَ بيرو: «أَلْقِ الْحَبْلَ بَعِيدًا.»

نَفَّذَ فرانسوا ذَلِكَ، فَهَرْوَلَ باك مُقْتَرِبًا يَضْحَكُ كَبَطَلٍ مُنْتَصِرٍ، وَأَخَذَ مَكَانَهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْفَرِيقِ. رَبَطَ الرَّجُلَانِ باك إِلَى السَّرْجِ ثُمَّ حَرَّرُوا الْمِزْلَجَةَ مِنَ الثَّلْجِ. رَكَضَ الرَّجُلَانِ بِجَانِبِ الْمِزْلَجَةِ الَّتِي بَدَأَتْ تَشُقُّ طَرِيقَهَا.

لقد أَثْبَتَ باك أَنَّهُ قَائِدٌ عَظِيمٌ، بَلْ وَكَانَ أَفْضَلَ مِنْ سبيتز الَّذِي ظَنَّ فرانسوا أَنَّهُ أَفْضَلُ مَنْ رَأَى فِي حَيَاتِهِ.

لَمْ يُمَانِعْ ديف وَسوليكس التَّغْيِيرَ الَّذِي طَرَأَ عَلَى مَوْقِعِ الْقِيَادَةِ، فَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ يَعْنِيهِمَا. كُلُّ مَا كَانَا يُرِيدَانِهِ هُوَ الْعَمَلُ وَالْعَمَلُ الْجَادُّ. طَالَمَا لَمْ يُزْعِجْ أَحَدٌ عَمَلَهُمَا، لَمْ يَهْتَمَّا بِمَا يَحْدُثُ. إِلَّا أَنَّ بَاقِيَ الْفَرِيقِ كَانَ قَدْ أَصْبَحَ خَارِجًا عَنِ السَّيْطَرَةِ، وَحَتَّى هُمَا انْدَهَشَا مِنْ سُرْعَةِ باك فِي إِعَادَتِهِمْ لِلنِّظَامِ.

بايك، الَّذِي كَانَ مَوْقِعُهُ خَلْفَ باك، وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ يَقُومُ بِأَيِّ عَمَلٍ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ، عُوقِبَ بِسُرْعَةٍ عَلَى عَدَمِ عَمَلِهِ بِقُوَّةٍ كَافِيَةٍ. وَقَبْلَ نِهَايَةِ الْيَوْمِ كَانَ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ بِقُوَّةٍ أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَ فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا.

بَدَأَ الْفَرِيقُ كُلُّهُ يَشْعُرُ أَنَّهُ أَفْضَلُ، فَكَانُوا يَعْمَلُونَ كَفَرِيقٍ وَاحِدٍ مُجَدَّدًا. وَعِنْدَ مُنْحَدَرِ نَهْرِ رينك، أُضِيفَ كَلْبَانِ آخَرَانِ مِنْ كِلَابِ الهاسكي — هُمَا تيك وَكونا — وَقَدْ نَجَحَ باك فِي إِدْخَالِهِمَا إِلَى مَنْظُومَةِ الْعَمَلِ بِسُرْعَةٍ أَذْهَلَتْ فرانسوا.

صَاحَ فرانسوا: «لَمْ يُوجَدْ قَطُّ كَلْبٌ مِثْلُ باك! أَبَدًا! إِنَّهُ يُسَاوِي أَلْفَ دُولَارٍ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ مَا رَأْيُكَ يَا بيرو؟»

أَوْمَأَ بيرو مُوَافِقًا، فَقَدْ كَانَ مُتَقَدِّمًا عَنِ الْجَدْوَلِ آنَذَاكَ وَيَكْسِبُ مَزِيدًا مِنَ الْوَقْتِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. كَانَ الطَّرِيقُ فِي حَالَةٍ مُمْتَازَةٍ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ثَلْجٌ جَدِيدٌ، كَمَا لَمْ يَكُنْ الْجَوُّ شَدِيدَ الْبُرُودَةِ. تَنَاوَبَ الرَّجُلَانِ عَلَى قِيَادَةِ الْمِزْلَجَةِ وَالرَّكْضِ بِجَانِبِهَا.

كَانَ ذَلِكَ الْجُزْءُ مِنْ نَهْرِ يوكون الَّذِي يَمْتَدُّ لِثَلَاثِينَ مِيلًا مُغَطًّى بِالْجَلِيدِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَفِي يَوْمٍ وَاحِدٍ قَطَعَ الْفَرِيقُ الْمَسَافَةَ نَفْسَهَا الَّتِي قَطَعَهَا فِي عَشَرَةِ أَيَّامٍ فِي رِحْلَةِ الذَّهَابِ. وَفِي رِحْلَةٍ وَاحِدَةٍ قَطَعُوا سِتِّينَ مِيلًا مِنْ بُحَيْرَةِ لوبارج إِلَى مُنْحَدَرَاتِ وايت هورس. وَرَكَضُوا بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ عَبْرَ بُحَيْرَاتِ مارش وَتاجيش وَبينيت حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي يَحِينُ دَوْرُهُ فِي الرَّكْضِ بِجَانِبِ الْمِزْلَجَةِ أَنْ يُمْسِكَ حَبْلًا مَرْبُوطًا فِي الْمِزْلَجَةِ. وَفِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنَ الْأُسْبُوعِ الثَّانِي، وَصَلُوا إِلَى مِنْطَقَةِ الْمَمَرِّ الْأَبْيَضِ، وَكَانَ يُمْكِنُهُمْ رُؤْيَةُ أَضْوَاءِ بَلْدَةِ سكاجوي مِنْ عَلَى بُعْدٍ.

كَانَتْ رِحْلَةٌ فِي وَقْتٍ قِيَاسِيٍّ؛ فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لِمُدَّةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا كَانُوا يَرْكُضُونَ مَسَافَةَ أَرْبَعِينَ مِيلًا فِي الْمُتَوَسِّطِ. وَلِمُدَّةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَى بَلْدَةِ سكاجوي، ظَلَّ بيرو وَفرانسوا يَحْتَفِلَانِ فِي الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ، وَعَرَضَ الْجَمِيعُ أَنْ يَدْعُوهُمْ لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، بَيْنَمَا كَانَ فَرِيقُ الْكِلَابِ مَحَلَّ نَظَرَاتِ حَشْدٍ مِنْ سَائِقِي الْكِلَابِ الَّذِينَ تَأَمَّلُوهُمْ بِإِعْجَابٍ.

الفصل السادس

تَجَارِبُ جَدِيدَةٌ

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيَّامٍ انْتَهَتْ الِاحْتِفَالَاتُ وَعَادَ الْجَمِيعُ إِلَى الْعَمَلِ، فَقَدْ وَصَلَتْ أَوَامِرُ رَسْمِيَّةٌ تُوَجِّهُ فرانسوا وَبيرو إِلَى أَمَاكِنَ جَدِيدَةٍ وَكَانَ عَلَيْهِمَا تَرْكُ فَرِيقِهِمَا وَرَاءَهُمَا. نَادَى فرانسوا باك وَاحْتَضَنَهُ وَبَكَى، وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ آخِرُ مَرَّةٍ يَرَى فِيهَا باك فرانسوا وَبيرو؛ فَعَلَى غِرَارِ غَيْرِهِمْ مِنَ الرِّجَالِ، رَحَلُوا مِنْ حَيَاةِ باك إِلَى الْأَبَدِ.

تَوَلَّى رَجُلٌ اسْكُتْلَنْدِيٌّ مَسْئُولِيَّةَ باك وَزُمَلَائِهِ فِي الْفَرِيقِ، مَعَ اثْنَيْ عَشَرَ فَرِيقًا مِنَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى وَبَدَأَ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ إِلَى داوسون.

لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ رَكْضٌ خَفِيفٌ، وَلَا مُحَاوَلَةٌ لِتَحْقِيقِ رَقْمٍ قِيَاسِيٍّ، فَقَطْ عَمَلٌ شَاقٌّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَعَ حِمْلٍ ثَقِيلٍ عَلَى الْمِزْلَجَةِ. كَانَتْ هَذِهِ هِيَ قَافِلَةُ الْبَرِيدِ الَّتِي تَحْمِلُ الْخِطَابَاتِ إِلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنِ الذَّهَبِ.

لَمْ يُحِبَّ باك الْأَمْرَ، وَلَكِنْ كَانَ يُمْكِنُهُ تَنْفِيذُ الْعَمَلِ وَالافْتِخَارُ بِذَلِكَ مِثْلَ ديف وَسوليكس، وَكَانَ يَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَقُومَ بَاقِي زُمَلَائِهِ بِالْجُزْءِ الْخَاصِّ بِهِمْ مِنَ الْعَمَلِ سَوَاءٌ أَكَانُوا يَشْعُرُونَ بِالْفَخْرِ أَمْ لَا. لَقَدْ كَانَتْ حَيَاةٌ مُمِلَّةٌ، وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ يُشْبِهُ غَيْرَهُ. فَفِي وَقْتٍ مُحَدَّدٍ كُلَّ صَبَاحٍ، كَانَ الطُّهَاةُ يَسْتَيْقِظُونَ وَيُشْعِلُونَ النِّيرَانَ وَيَبْدَءُونَ فِي طَهْيِ الْإِفْطَارِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ، بَيْنَمَا يَقُومُ بَعْضُ الرِّجَالِ بِحَزْمِ الْمُخَيَّمِ، يَتَوَلَّى آخَرُونَ تَجْهِيزَ الْكِلَابِ بِالسُّرُوجِ ثُمَّ يَبْدَءُونَ فِي شَقِّ طَرِيقِهِمْ قَبْلَ الْفَجْرِ بِسَاعَةٍ تَقْرِيبًا. وَفِي الْمَسَاءِ، كَانُوا يُخَيِّمُونَ مُجَدَّدًا، فَيَتَوَلَّى بَعْضُ الرِّجَالِ إِشْعَالَ النِّيرَانِ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ يَقْطَعُ الْحَطَبَ، وَآخَرُونَ كَانُوا يَجْلِبُونَ الْمِيَاهَ أَوِ الثَّلْجَ إِلَى الطُّهَاةِ. كَمَا كَانَ يَتِمُّ إِطْعَامُ الْكِلَابِ أَيْضًا،

وَبِالنِّسْبَةِ لَهَا كَانَ ذَلِكَ هُوَ أَكْثَرُ الْأَوْقَاتِ الشَّيِّقَةِ عَلَى مَدَارِ الْيَوْمِ، كَمَا كَانَ التَّسَكُّعُ مَعَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى لِمُدَّةِ سَاعَةٍ أَوْ مَا يَقْرُبُ بَعْدَ تَنَاوُلِ السَّمَكِ مُمْتِعًا أَيْضًا، فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ الْعَشَرَاتُ مِنَ الْكِلَابِ. وَكَانَ هُنَاكَ مُقَاتِلَانِ شَرِسَانِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَلَكِنْ بَعْدَ ثَلَاثِ مَعَارِكَ شَرِسَةٍ مَعَ أَكْثَرِ الْكِلَابِ شَرَاسَةً أَصْبَحَ باك مُقَاتِلًا لَا يُقْهَرُ. فَعِنْدَمَا كَانَ يَقِفُ مُنْتَصِبًا وَيُكَشِّرُ عَنْ أَنْيَابِهِ، كَانَتْ كُلُّ الْكِلَابِ تَبْتَعِدُ عَنْ طَرِيقِهِ.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُحِبُّهُ باك هُوَ الِاسْتِلْقَاءُ بِجَانِبِ النِّيرَانِ وَأَرْجُلُهُ الْخَلْفِيَّةُ مَثْنِيَّةٌ تَحْتَهُ وَالْأَمَامِيَّةُ مَمْدُودَةٌ أَمَامَهُ، وَرَأْسُهُ مَرْفُوعَةٌ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ عَلَى وَهِيجِ النِّيرَانِ بِنَظَرَاتٍ حَالِمَةٍ. كَانَ يُفَكِّرُ أَحْيَانًا فِي مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر فِي وَادِي سانتا كلارا الَّذِي تَغْمُرُهُ الشَّمْسُ، وَفِي خَزَّانِ السِّبَاحَةِ الْأَسْمَنْتِيِّ، وَفِي يسابل — الْكَلْبِ الْمِكْسِيكِيِّ الْأَصْلَعِ — وَفِي توتس — كَلْبِ البج الْيَابَانِيِّ — وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَذَكَّرُ أَكْثَرَ الرَّجُلَ ذَا السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ، وَإِصَابَةَ الْكَلْبَةِ كيرلي، وَالْمَعْرَكَةَ الْكُبْرَى مَعَ سبيتز، وَالْأَشْيَاءَ الْجَيِّدَةَ الَّتِي أَكَلَهَا أَوِ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَهَا. لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِالْحَنِينِ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ لَقَدْ كَانَ الْجَنُوبُ بَعِيدًا جِدًّا وَلَمْ تَكُنْ ذِكْرَيَاتُهُ تُؤَثِّرُ فِيهِ؛ بَلْ كَانَتِ الْغَرَائِزُ الَّتِي يَشْعُرُ بِهَا أَكْثَرَ أَهَمِّيَّةً، فَكَانَتْ تَجْعَلُ أَشْيَاءَ لَمْ يَرَهَا مِنْ قَبْلُ تَبْدُو مَأْلُوفَةً.

كَانَتِ الرِّحْلَةُ شَاقَّةً مَعَ كُلِّ هَذَا الْبَرِيدِ عَلَى الْمِزْلَجَةِ، وَقَدْ أَرْهَقَ الْعَمَلُ جَمِيعَ الْكِلَابِ. فَكَانَتْ جَمِيعُهَا وَاهِنَةً عِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى داوسون وَبِحَاجَةٍ إِلَى أُسْبُوعٍ أَوْ عَشَرَةِ أَيَّامٍ عَلَى الْأَقَلِّ لِلرَّاحَةِ. وَلَكِنْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ بَدَءُوا رِحْلَتَهُمْ فِي الطَّرِيقِ بِجَانِبِ نَهْرِ يوكون مُحَمَّلِينَ بِخِطَابَاتٍ مُجَدَّدًا. كَانَتِ الْكِلَابُ مُرْهَقَةً، وَالسَّائِقُونَ يَتَذَمَّرُونَ، وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ كَانَتِ الثُّلُوجُ تَنْهَمِرُ كُلَّ يَوْمٍ. وَقَدْ جَعَلَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ نَاعِمًا وَالْمِزْلَجَةَ لَمْ تَكُنْ تَنْزَلِقُ بِسُهُولَةٍ مِمَّا كَانَ يَعْنِي أَنَّ جَرَّهَا كَانَ أَثْقَلَ بِالنِّسْبَةِ لِلْكِلَابِ. وَرُغْمَ صُعُوبَةِ الْأَمْرِ، كَانَ السَّائِقُونَ عَادِلِينَ طَوَالَ الْوَقْتِ وَقَامُوا بِأَفْضَلِ مَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ أَجْلِ الْحَيَوَانَاتِ.

فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، كَانَ يَتِمُّ الِاعْتِنَاءُ بِالْكِلَابِ أَوَّلًا. كَانَتْ تَأْكُلُ قَبْلَ السَّائِقِينَ وَلَمْ يَشْرَعْ أَيٌّ مِنْهُمْ فِي تَجْهِيزِ حَقِيبَةِ نَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْتَنِيَ بِأَقْدَامِ الْكِلَابِ الَّتِي يَقُودُهَا، وَمَعَ ذَلِكَ، كَانَتْ قُوَّتُهَا تَخْبُو. فَمُنْذُ بِدَايَةِ الشِّتَاءِ سَافَرَتِ الْكِلَابُ أَلْفًا وَثَمَانِمِائَةَ مِيلٍ وَهِيَ تَجُرُّ الْمِزْلَجَاتِ كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ، وَهَذِهِ الْمَسَافَةُ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تُوهِنَ حَتَّى أَقْوَى الْكِلَابِ. كَانَ باك مُسْتَمِرًّا

فِي الْعَمَلِ وَيَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَقُومَ زُمَلَاؤُهُ بِعَمَلِهِمْ كَذَلِكَ، وَيَتَعَاوَنُونَ مَعًا رُغْمَ أَنَّهُ كَانَ مُرْهَقًا هُوَ الْآخَرُ. كَانَ بيلي يَبْكِي وَيَئِنُّ فِي نَوْمِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ. وَكَانَ جو لَئِيمًا أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ، وَأَصْبَحَ لَا يُمْكِنُ الِاقْتِرَابُ مِنْ سوليكس مِنْ أَيِّ جَانِبٍ.

وَلَكِنْ مِنْ بَيْنِ كِلَابِ الْفَرِيقِ، كَانَ ديف أَكْثَرَ مَنْ يُعَانِي؛ فَشَيْءٌ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَى مَا يُرَامُ بِهِ. لَقَدْ أَصْبَحَ أَكْثَرَ تَعَاسَةً وَغَضَبًا، وَبِمُجَرَّدِ إِقَامَةِ الْمُخَيَّمِ كَانَ يَحْفِرُ حُفْرَةً لِلنَّوْمِ حَيْثُ كَانَ سَائِقُهُ يُطْعِمُهُ. وَكَانَ بِمُجَرَّدِ تَحَرُّرِهِ مِنَ السَّرْجِ وَاسْتِلْقَائِهِ، لَا يَنْهَضُ إِلَّا عِنْدَ وَقْتِ وَضْعِ السَّرْجِ مُجَدَّدًا فِي الصَّبَاحِ. وَأَحْيَانًا وَهُوَ فِي السَّرْجِ، عِنْدَمَا كَانَ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ بِقُوَّةٍ كَانَ يَصْرُخُ أَلَمًا. وَقَدْ تَفَقَّدَهُ السَّائِقُ وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ بِهِ أَيَّةَ إِصَابَةٍ.

وَعِنْدَ وُصُولِهِمْ إِلَى كاسيار بار، كَانَ ديف ضَعِيفًا لِلْغَايَةِ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَسْقُطُ أَرْضًا فِي السَّرْجِ. أَوْقَفَ السَّائِقُ الِاسْكُتْلَنْدِيُّ الْكِلَابَ وَأَخْرَجَ ديف مِنَ الْفَرِيقِ. فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يُرِيحَ ديف وَيَتْرُكَهُ يَرْكُضُ بِحُرِّيَّةٍ خَلْفَ الْمِزْلَجَةِ. وَرُغْمَ أَنَّهُ كَانَ مَرِيضًا لِلْغَايَةِ، لَمْ يُحِبَّ ديف أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْفَرِيقِ، فَقَدْ تَذَمَّرَ وَزَمْجَرَ أَثْنَاءَ إِزَالَةِ السَّرْجِ، وَتَأَوَّهَ بِحُزْنٍ وَهُوَ يَرَى سوليكس فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يَشْغَلُهُ لِوَقْتٍ طَوِيلٍ؛ لَقَدْ كَانَ ديف فَخُورًا بِعَمَلِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُغْمَ مَرَضِهِ الشَّدِيدِ، لَمْ يَكُنْ يُطِيقُ رُؤْيَةَ كَلْبٍ آخَرَ يَقُومُ بِعَمَلِهِ.

عِنْدَمَا بَدَأَتِ الْمِزْلَجَةُ تَتَحَرَّكُ مَرَّةً أُخْرَى، رَكَضَ ديف فِي الثَّلْجِ وَهُوَ يَنْبَحُ تِجَاهَ سوليكس وَيُحَاوِلُ دَفْعَهُ بَعِيدًا عَنِ الطَّرِيقِ. حَاوَلَ السَّائِقُ أَنْ يُبْقِيَ ديف بَعِيدًا عَنِ السَّرْجِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ، وَقَدْ جَعَلَهُ ذَلِكَ حَزِينًا لِلْغَايَةِ. كَانَ يَرَى كَمْ كَانَ ديف يَتَلَهَّفُ لِأَنْ يَكُونَ ضِمْنَ الْفَرِيقِ، فَقَدْ رَفَضَ الرَّكْضَ بِهُدُوءٍ خَلْفَ الْمِزْلَجَةِ حَيْثُ كَانَ الرَّكْضُ سَهْلًا، وَظَلَّ يَرْكُضُ بِجَانِبِ الْمِزْلَجَةِ عَلَى الثُّلُوجِ النَّاعِمَةِ حَيْثُ كَانَ الرَّكْضُ أَكْثَرَ صُعُوبَةً حَتَّى أُنْهِكَتْ قُوَاهُ. ثُمَّ اسْتَلْقَى لِيَنَالَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ فِي حِينِ مَرَّتْ بِهِ بَاقِي الْمِزْلَجَاتِ.

وَبِكُلِّ مَا تَبَقَّى مِنْ قُوَّتِهِ، تَمَكَّنَ ديف مِنَ اللَّحَاقِ بِالْمِزْلَجَاتِ حَيْثُ تَوَقَّفَتْ لِلرَّاحَةِ، وَمَرَّ بِالْمِزْلَجَاتِ الْأُخْرَى حَتَّى وَجَدَ مِزْلَجَتَهُ، ثُمَّ وَقَفَ إِلَى جَانِبِ سوليكس. كَانَ السَّائِقُ بَعِيدًا لِبِضْعِ دَقَائِقَ يُحْضِرُ وَلَّاعَةً مِنْ أَجْلِ غُلْيُونِهِ مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي خَلْفَهُ. ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمِزْلَجَةِ وَبَدَأَتِ الْكِلَابُ رِحْلَتَهَا، وَلَكِنَّهَا انْطَلَقَتْ تَرْكُضُ عَلَى الطَّرِيقِ بِسُهُولَةٍ، فَالْتَفَتَتْ وَرَاءَهَا ثُمَّ تَوَقَّفَتْ فِي دَهْشَةٍ. وَكَانَتِ الدَّهْشَةُ تَعْتَرِي السَّائِقَ كَذَلِكَ؛ فَالْكِلَابُ انْطَلَقَتْ لَكِنَّ

الْمِزْلَجَةَ لَمْ تَتَحَرَّكْ مِنْ مَكَانِهَا. فَنَادَى السَّائِقُ عَلَى السَّائِقِينَ الْآخَرِينَ لِرُؤْيَةِ مَا حَدَثَ؛ كَانَ ديف قَدْ قَضَمَ السَّرْجَ الَّذِي يَصِلُ سوليكس بِالْكِلَابِ الْأُخْرَى وَبِالْمِزْلَجَةِ وَكَانَ يَقِفُ أَمَامَهَا بِالضَّبْطِ.

كَانَ يَتَوَسَّلُ بِعَيْنَيْهِ لِيَبْقَى فِي مَكَانِهِ، وَلَمْ يَكُنِ السَّائِقُ يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ. وَأَخَذَ السَّائِقُونَ الْآخَرُونَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ كَيْفَ تَحْزَنُ الْكِلَابُ عِنْدَمَا يَتِمُّ إِبْعَادُهَا عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي تُحِبُّهُ، وَعَنْ كِلَابٍ أُخْرَى قَامَتْ بِأَفْعَالٍ مُشَابِهَةٍ. وَرَأَوْا أَنَّهُ رُغْمَ أَنَّ ديف كَانَ مَرِيضًا وَمُصَابًا، يَنْبَغِي لَهُمْ تَرْكُهُ يَقُومُ بِالْعَمَلِ إِذَا أَرَادَ ذَلِكَ. لِذَا وَضَعُوا عَلَيْهِ السَّرْجَ مُجَدَّدًا وَقَامَ بِجَرِّ الْمِزْلَجَةِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنَّهُ صَرَخَ أَلَمًا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أَثْنَاءَ عَمَلِهِ وَسَقَطَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَهُمْ يَرْكُضُونَ.

تَمَاسَكَ ديف حَتَّى أَقَامُوا مُخَيَّمَهُمْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، حَيْثُ أَقَامَ لَهُ السَّائِقُ مَكَانًا بِجَانِبِ النِّيرَانِ. وَفِي الصَّبَاحِ، كَانَ وَاهِنًا لِلْغَايَةِ وَلَا يَسْتَطِيعُ السَّفَرَ، وَاضْطُرَّ السَّائِقُ لِتَرْكِهِ خَلْفَهُ حَتَّى يَرْتَاحَ وَيَتَحَسَّنَ. وَكَانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ يَرَاهُ زُمَلَاؤُهُ فِيهَا وَهُوَ مُسْتَلْقٍ فَوْقَ الثُّلُوجِ يُرَاقِبُهُمْ وَهُمْ يَرْحَلُونَ فِي طَرِيقِهِمْ. كَانَ يُمْكِنُهُمْ سَمَاعُهُ وَهُوَ يَعْوِي بِحُزْنٍ حَتَّى اخْتَفَوْا مِنْ أَمَامِهِ خَلْفَ بَعْضِ الْأَشْجَارِ بِجَانِبِ النَّهْرِ.

الفصل السابع

أَسْيَادٌ جُدُدٌ

بَعْدَ مُرُورِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا عَلَى رَحِيلِهِمْ مِنْ داوسون، وَصَلَ باك وَزُمَلَاؤُهُ إِلَى بَلْدَةِ سكاجوي. كَانَ الْفَرِيقُ يَحْمِلُ بَرِيدَ مِنْطَقَةِ سولت ووتر، وَكَانَتِ الْكِلَابُ مُنْهَكَةَ الْقُوَى تَمَامًا. وَانْخَفَضَ وَزْنُ باك مِنْ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ رَطْلًا إِلَى مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ رَطْلًا فَقَطْ. وَرُغْمَ أَنَّ الْكِلَابَ الْأُخْرَى كَانَتْ أَقَلَّ وَزْنًا مِنْ باك، فَقَدْ فَقَدَتْ وَزْنًا أَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ بايك — الَّذِي كَانَ يَتَظَاهَرُ بِإِصَابَةِ قَدَمِهِ لِكَيْ يَتَهَرَّبَ مِنَ الْعَمَلِ — يَعْرُجُ حَقًّا، وَكَذَلِكَ كَانَ سوليكس، كَمَا أُصِيبَ كَتِفُ داب.

كَانَتْ أَرْجُلُهُمْ تُؤْلِمُهُمْ أَلَمًا شَدِيدًا، وَلَمْ يَعُدْ لَدَيْهِمُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْقَفْزِ وَالِانْطِلَاقِ، وَكَانَتْ تَرْكُضُ بِأَرْجُلٍ مُثْقَلَةٍ مُتْعَبَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خَطْبٌ مَا بِالْكِلَابِ سِوَى أَنَّهَا كَانَتْ مُنْهَكَةَ الْقُوَى تَمَامًا، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ نَوْعَ الْإِنْهَاكِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ الْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ، وَالَّذِي كَانَ يُشْفَى بَعْدَ بِضْعِ سَاعَاتٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ الْإِنْهَاكَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ الْمُسْتَمِرِّ لِعِدَّةِ أَشْهُرٍ طَوِيلَةٍ. لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ أَيُّ قُوَّةٍ بَاقِيَةٍ لَدَى الْكِلَابِ، فَقَدِ اسْتُنْزِفَتْ قُوَاهَا تَمَامًا حَتَّى آخِرَ قَطْرَةٍ، وَخَارَتْ قُوَى كُلِّ عَضَلَةٍ فِي أَجْسَادِهَا. فَفِي أَقَلَّ مِنْ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ، كَانَتِ الْكِلَابُ قَدْ قَطَعَتْ مَسَافَةَ أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمائَةِ مِيلٍ، وَخِلَالَ الْأَلْفِ وَثَمانِمائَةِ مِيلٍ الْأَخِيرَةِ لَمْ تَأْخُذْ إِلَّا خَمْسَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ لِلرَّاحَةِ. وَعِنْدَمَا وَصَلَتِ الْكِلَابُ إِلَى سكاجوي، بَدَتْ وَكَأَنَّهَا تَبْذُلُ آخِرَ قَطَرَاتِ الْقُوَّةِ فِي أَجْسَادِهَا. كَانَتْ بِالْكَادِ تَسْتَطِيعُ جَرَّ الْمِزْلَجَةِ، وَفِي التِّلَالِ الْمُنْحَدِرَةِ، كَانَتْ تَتَمَكَّنُ بِالْكَادِ مِنَ الْبَقَاءِ بَعِيدًا عَنْ طَرِيقِ الْمِزْلَجَةِ.

«تَقَدَّمِي أَيَّتُهَا الْكِلَابُ الْمِسْكِينَةُ الْمُنْهَكَةُ. هَذَا هُوَ آخِرُ الْمَطَافِ، ثُمَّ سَنَأْخُذُ اسْتِرَاحَةً طَوِيلَةً. سَنَأْخُذُ اسْتِرَاحَةً طَوِيلَةً بِالتَّأْكِيدِ.» هَكَذَا قَالَ السَّائِقُ وَهُوَ يُشَجِّعُ الْكِلَابَ وَهِيَ تُهَرْوِلُ فِي الطَّرِيقِ الرَّئِيسِيِّ لسكاجوي.

كَانَ السَّائِقُونَ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُمْ سَيَأْخُذُونَ اسْتِرَاحَةً طَوِيلَةً، وَلَكِنْ كَانَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ هَرْوَلُوا إِلَى كلونديك بَحْثًا عَنِ الذَّهَبِ، وَالْعَدِيدُ مِنْهُمْ لَمْ يُحْضِرْ عَائِلَتَهُ مَعَهُ، مِمَّا يَعْنِي وُجُودَ الْكَثِيرِ مِنَ الْبَرِيدِ مَعَ الْأَوَامِرِ الرَّسْمِيَّةِ. وَكَانَتْ هُنَاكَ دُفْعَاتٌ جَدِيدَةٌ مِنْ كِلَابِ خَلِيجِ هدسون فِي طَرِيقِهَا لِتَحُلَّ مَحَلَّ هَذِهِ الْكِلَابِ الَّتِي خَارَتْ قُوَاهَا وَلَا تَسْتَطِيعُ الرَّكْضَ عَلَى الطَّرِيقِ بَعْدَ الْآنَ. وَقَدْ بِيعَتِ الْكِلَابُ الَّتِي لَمْ تَعُدْ قَادِرَةً عَلَى الرَّكْضِ.

مَرَّتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَاكْتَشَفَ باك وَزُمَلَاؤُهُ كَمْ كَانُوا ضُعَفَاءَ وَمُرْهَقِينَ. وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ، أَتَى رَجُلَانِ مِنَ الْجَنُوبِ وَاشْتَرَوْهُمْ مَعَ السُّرُجِ وَكَافَّةِ الْمُعَدَّاتِ. كَانَ الرَّجُلَانِ يُدْعَوَانِ هال وتشارلز، وَكَانَ تشارلز رَجُلًا فِي مُنْتَصَفِ الْعُمْرِ ذَا عَيْنَيْنِ دَامِعَتَيْنِ وَشَارِبٍ مَلْفُوفِ الْأَطْرَافِ؛ فِي حِينِ كَانَ هال فِي التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ أَوِ الْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ، وَكَانَ يَحْمِلُ مُسَدَّسًا ضَخْمًا وَسِكِّينَ صَيْدٍ مَرْبُوطَيْنِ فِي حِزَامِهِ. بَدَا الرَّجُلَانِ غُرَبَاءَ عَنِ الشَّمَالِ، وَلَمْ يَفْهَمْ أَيُّ أَحَدٍ أَسْبَابَ مَجِيئِهِمَا لِلشَّمَالِ.

سَمِعَ باك الرِّجَالَ يَتَحَدَّثُونَ، وَرَأَى الرَّجُلَ يَتَبَادَلُ الْمَالَ مَعَ مُوَظَّفِ الْحُكُومَةِ، وَعَلِمَ أَنَّ السَّائِقَ الِاسْكُتْلَنْدِيَّ وَسَائِقَيْ قِطَارِ الْبَرِيدِ سَيَخْرُجُونَ مِنْ حَيَاتِهِ مِثْلَ بيرو وَفرانسوا وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَرَجُوا مِنْ حَيَاتِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى مُخَيَّمِهِمُ الْجَدِيدِ، رَأَى باك مَكَانًا فَوْضَوِيًّا. كَانَتِ الْخَيْمَةُ عَلَى وَشْكِ الِانْهِيَارِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ أَطْبَاقٌ مُتَّسِخَةٌ. كَمَا رَأَى امْرَأَةً كَانَ الرَّجُلَانِ يَدْعُونَهَا مرسيدس، وَهِيَ زَوْجَةُ تشارلز وَأُخْتُ هال.

رَاقَبَهُمْ باك بِتَوَتُّرٍ وَهُمْ يُحَاوِلُونَ إِزَالَةَ الْخَيْمَةِ وَتَحْمِيلَ الْمِزْلَجَةِ. لَقَدْ كَانُوا يَبْذُلُونَ قُصَارَى جُهْدِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ؛ فَقَدْ لَفُّوا الْخَيْمَةَ فِي لُفَافَةٍ أَكْبَرَ بِثَلَاثَةِ أَضْعَافٍ مِمَّا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ، وَتَرَكُوا الْأَطْبَاقَ مُتَّسِخَةً وَحَزَمُوهَا. وَكَانَتْ مرسيدس وَالرَّجُلَانِ يَتَحَدَّثُونَ وَيَتَجَادَلُونَ طَوَالَ الْوَقْتِ. وَعِنْدَمَا وَضَعُوا حَقِيبَةَ الْمَلَابِسِ فِي الْأَمَامِ عَلَى الْمِزْلَجَةِ، اقْتَرَحَتْ هِيَ أَنْ تُوضَعَ فِي الْخَلْفِ، وَبَعْدَ أَنْ وَضَعُوهَا هُنَاكَ وَغَطَّوْهَا بِأَشْيَاءَ

أُخْرَى، اكْتَشَفَتْ أَنَّ هُنَاكَ أَشْيَاءَ أُخْرَى نَسِيَتْ أَنْ تَحْزِمَهَا وَيَجِبُ أَنْ تُوضَعَ فِي حَقِيبَةِ الْمَلَابِسِ. لِذَا فَرَّغُوا الْحُمُولَةَ كُلَّهَا وَبَدَءُوا مِنْ جَدِيدٍ.

جَاءَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ مِنْ مُخَيَّمٍ قَرِيبٍ وَرَاقَبُوهُمْ وَهُمْ يَضْحَكُونَ وَيَتَغَامَزُونَ.

وَقَالَ أَحَدُهُمْ: «لَدَيْكُمْ حِمْلٌ ثَقِيلٌ بِالْفِعْلِ. لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَدَخَّلَ فِي عَمَلِكُمْ، وَلَكِنْ لَوْ كُنْتُ مَكَانَكُمْ، لَمَا أَخَذْتُ الْخَيْمَةَ.»

صَاحَتْ مرسيدس وَهِيَ تُلَوِّحُ بِيَدَيْهَا: «مُسْتَحِيلٌ! كَيْفَ يُمْكِنُنَا الْعَيْشُ بِدُونِ خَيْمَةٍ؟»

فَأَجَابَ الرَّجُلُ: «لَسْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا. إِنَّهُ وَقْتُ الرَّبِيعِ وَلَنْ تُوَاجِهُوا جَوًّا بَارِدًا بَعْدَ الْآنَ.»

هَزَّتْ رَأْسَهَا بَيْنَمَا كَانَ تشارلز وَهال يَضَعُونَ آخِرَ الْأَشْيَاءِ فَوْقَ الْحُمُولَةِ الضَّخْمَةِ.

سَأَلَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «أَتَظُنُّ أَنَّهَا سَتَتَحَرَّكُ؟»

قَالَ تشارلز بِغَضَبٍ: «وَلِمَ لَا؟»

قَالَ الرَّجُلُ بِسُرْعَةٍ: «حَسَنًا، حَسَنًا، لَقَدْ كُنْتُ أَتَسَاءَلُ فَقَطْ. فَقَدْ بَدَا أَنَّ الْحِمْلَ ثَقِيلٌ.»

أَدَارَ تشارلز ظَهْرَهُ وَشَدَّ الْحِبَالَ بِأَفْضَلِ مَا يُمْكِنُهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ جَيِّدًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

سَأَلَ رَجُلٌ آخَرُ: «وَهَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ أَنَّ هَذِهِ الْكِلَابَ يُمْكِنُهَا التَّحَرُّكُ طَوَالَ الْيَوْمِ وَهِيَ تَجُرُّ كُلَّ هَذَا الْحِمْلِ؟»

قَالَ هال: «بِالتَّأْكِيدِ، انْطَلِقِي! انْطَلِقِي!»

قَفَزَتِ الْكِلَابُ إِلَى الْأَمَامِ فِي السَّرْجِ وَجَذَبَتْ بِقُوَّةٍ لِعِدَّةِ لَحَظَاتٍ ثُمَّ اسْتَرْخَتْ؛ فَلَمْ تَسْتَطِعْ جَرَّ الْمِزْلَجَةِ.

صَاحَ هال: «حَيَوَانَاتٌ كَسُولَةٌ!» وَغَضِبَ مِنَ الْكِلَابِ، وَلَكِنْ طَلَبَتْ مِنْهُ مرسيدس أَلَّا يُعَامِلَهَا بِقَسْوَةٍ.

صَاحَتْ: «الْحَيَوَانَاتُ الْمِسْكِينَةُ! الْآنَ يَجِبُ أَنْ تَعِدَنِي أَنَّكَ لَنْ تَكُونَ قَاسِيًا مَعَهَا فِي بَاقِي الرِّحْلَةِ وَإِلَّا لَنْ أَتَحَرَّكَ خُطْوَةً وَاحِدَةً.»

رَدَّ عَلَيْهَا أَخُوهَا بِسُخْرِيَةٍ: «أَنْتِ لَا تَعْرِفِينَ شَيْئًا عَنِ الْكِلَابِ. إِنَّهَا حَيَوَانَاتٌ كَسُولَةٌ وَيَجِبُ أَنْ تَكُونِي قَاسِيَةً مَعَهَا، حَتَّى تَكُونَ ذَاتَ نَفْعٍ. هَذِهِ هِيَ طَرِيقَتُهَا، وَاسْأَلِي أَيَّ شَخْصٍ آخَرَ؛ اسْأَلِي أَحَدَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ.»

قَالَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «إِنَّهَا حَيَوَانَاتٌ ضَعِيفَةٌ لِلْغَايَةِ، مُنْهَكَةُ الْقُوَى بِشِدَّةٍ، وَهَذِهِ هِيَ الْمُشْكِلَةُ، إِنَّهَا بِحَاجَةٍ لِلرَّاحَةِ.»

قَالَ هال بِغَضَبٍ: «كَلَّا، إِنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ.»

صَاحَ الرَّجُلُ الْآخَرُ رَدًّا عَلَيْهِ: «إِنَّهَا بِحَاجَةٍ لِذَلِكَ إِذَا أَرَدْتَهَا قَوِيَّةً بِشَكْلٍ كَافٍ لِتَقُومَ بِعَمَلِهَا.»

أَجَابَ هال: «لِمَ لَا تَتْرُكُونَنِي وَشَأْنِي مَعَهَا، وتَدَعُونَنِي أَقُومُ بِعَمَلِي!»

– «اسْتَمِعْ إِلَيَّ أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَنَا فَقَطْ أُحَاوِلُ أَنْ أُعْطِيَكَ نَصِيحَةً جَيِّدَةً. أَيُّ شَخْصٍ يُمْكِنُهُ أَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْكِلَابَ بِحَاجَةٍ لِلرَّاحَةِ. وَلَكِنْ إِذَا كُنْتَ لَا تُرِيدُ الِاسْتِمَاعَ إِلَيَّ، فَلَسْتَ مُضْطَرًّا لِذَلِكَ.»

أَجَابَ هال: «لَقَدْ قُلْتَهَا بِنَفْسِكَ.»

لِلَحْظَةٍ بَدَا وَكَأَنَّ الرَّجُلَ الْآخَرَ قَدْ بَدَأَ يَغْضَبُ، ثُمَّ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَارْتَسَمَتْ عَلَى شَفَتَيْهِ ابْتِسَامَةٌ صَغِيرَةٌ وَقَالَ: «أَتَعْلَمُ شَيْئًا، بَعْدَ إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْأَمْرِ، أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْلَمُ حَقًّا مَاذَا تَفْعَلُ.» ثُمَّ أَعْطَى ظَهْرَهُ لِهال وَتَحَرَّكَ بَعِيدًا فِي صَمْتٍ.

كَانَتْ مرسيدس مُحْرَجَةً مِنْ هَذَا الْمَشْهَدِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ سَعِيدَةً لِأَنَّهُ انْتَهَى.

وَقَالَتْ لِأَخِيهَا: «لَا تَهْتَمَّ لِذَلِكَ الرَّجُلِ، أَنْتَ الَّذِي سَيَقُودُ كِلَابَنَا، لِذَلِكَ افْعَلْ مَا تَرَاهُ مُنَاسِبًا.»

قَامَ هال بِكُلِّ مَا بِوُسْعِهِ لِحَمْلِ الْكِلَابِ عَلَى التَّحَرُّكِ، وَقَدْ دَفَعَتِ الْكِلَابُ نَفْسَهَا إِلَى الْأَمَامِ وَغَرَسَتْ أَقْدَامَهَا فِي الثَّلْجِ وَانْخَفَضَتْ مُسْتَخْدِمَةً كُلَّ قُوَّتِهَا فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَحْرِيكِ الْمِزْلَجَةِ. وَلَكِنَّ الْمِزْلَجَةَ لَمْ تَتَزَحْزَحْ مِنْ مَكَانِهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ مِرْسَاةً، وَبَعْدَ مُحَاوَلَتَيْنِ تَوَقَّفَتِ الْكِلَابُ سَاكِنَةً تَلْهَثُ. كَانَ هال يَسْتَشِيطُ غَضَبًا مِنَ الْكِلَابِ؛ فَقَدْ صَرَخَ وَدَفَعَهَا بِقُوَّةٍ، لَكِنَّ مرسيدس أَوْقَفَتْهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَسَقَطَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا أَمَامَ باك وَالدُّمُوعُ تَمْلَأُ عَيْنَيْهَا، ثُمَّ وَضَعَتْ ذِرَاعَيْهَا حَوْلَ رَقَبَتِهِ.

بَكَتْ قَائِلَةً: «أَيَّتُهَا الْكِلَابُ الْمِسْكِينَةُ، لِمَاذَا لَا تَسْحَبِينَ بِقُوَّةٍ؟ عِنْدَهَا لَنْ يَكُونَ قَاسِيًا مَعَكُمْ.»

لَمْ يُجِبْهَا باك، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا لَمْ يَسْتَطِعْ مَعَهَا الْمُقَاوَمَةَ.

لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُ الْمُرَاقِبِينَ — وَالَّذِي كَانَ يُطْبِقُ عَلَى أَسْنَانِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَنَقِ — أَنْ يَصْمُتَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ قَائِلًا: «لَا يُهِمُّنِي مَا يَحْدُثُ لَكُمْ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ الْكِلَابِ

أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكُمْ بِهَذَا، يُمْكِنُكُمْ مُسَاعَدَتُهَا كَثِيرًا بِتَحْرِيرِ الْمِزْلَجَةِ مِنَ الجَلِيدِ، فَهِيَ مُجَمَّدَةٌ عَلَى الْأَرْضِ. أَلْقُوا بِوَزْنِكُمْ عَلَيْهَا وَادْفَعُوهَا يَمِينًا وَيَسَارًا وَأَخْرِجُوهَا.»

حَاوَلُوا تَحْرِيكَ الْمِزْلَجَةِ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ اتَّبَعُوا نَصِيحَةَ الرَّجُلِ وَتَمَكَّنَ هال مِنْ تَحْرِيرِ الْمِزْلَجَةِ مِنَ الْجَلِيدِ. تَحَرَّكَتِ الْمِزْلَجَةُ الْمُثْقَلَةُ بِالْحُمُولِ إِلَى الْأَمَامِ، مَعَ كِفَاحِ باك وَزُمَلَائِهِ وَمُعَامَلَةِ هال الْقَاسِيَةِ. بَعْدَ مِائَةِ يَاردَة انْحَنَى الطَّرِيقُ وَانْحَدَرَ إِلَى الْأَسْفَلِ فِي اتِّجَاهِ الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ. كَانَ الْأَمْرُ يَسْتَدْعِي سَائِقًا مُحْتَرِفًا لِكَيْ يُحَافِظَ عَلَى الْمِزْلَجَةِ الْمُثْقَلَةِ بِالْحُمُولِ مُعْتَدِلَةً فِي هَذَا الْمُنْحَنَى، وَلَكِنَّ هال لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَقُومُ بِذَلِكَ. وَبِمُجَرَّدِ أَنِ انْعَطَفُوا فِي ذَلِكَ الْمُنْحَنَى، سَقَطَتِ الْمِزْلَجَةُ وَتَنَاثَرَتْ نِصْفُ حُمُولَتِهَا عَبْرَ الْحِبَالِ الرَّخْوَةِ. لَمْ تَتَوَقَّفِ الْكِلَابُ عَنِ الرَّكْضِ وَانْقَلَبَتِ الْمِزْلَجَةُ عَلَى جَانِبِهَا خَلْفَهُمْ. كَانَتِ الْكِلَابُ غَاضِبَةً بِسَبَبِ الْمُعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ وَالْحِمْلِ الثَّقِيلِ، وَكَانَ باك يَتَشَيَّطُ غَضَبًا، وَانْدَفَعَ رَاكِضًا، وَتَبِعَهُ الْقَطِيعُ، وَأَخَذَ هال يَصْرُخُ: «تَوَقَّفُوا! تَوَقَّفُوا!» وَلَكِنَّهَا لَمْ تَتَوَقَّفْ. تَعَثَّرَ هال وَسَقَطَ وَسُحِبَ مِنْ قَدَمَيْهِ، انْدَفَعَتِ الْكِلَابُ عَبْرَ الطَّرِيقِ، نَاثِرَةً بَاقِي الْحُمُولَةِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ.

قَامَ بَعْضُ الْأَشْخَاصِ الطَّيِّبِينَ بِالْإِمْسَاكِ بِالْكِلَابِ وَجَمْعِ الْمُقْتَنَيَاتِ، كَمَا قَدَّمُوا لَهُمْ بَعْضَ النَّصَائِحِ. فَقَدْ أَخْبَرُوا هال وَتشارلز وَمرسيدس أَنَّ عَلَيْهِمْ تَقْلِيلَ حِمْلِهِمْ إِلَى النِّصْفِ وَإِحْضَارَ ضِعْفِ عَدَدِ الْكِلَابِ إِذَا أَرَادُوا الْوُصُولَ إِلَى داوسون كَمَا يُخَطِّطُونَ. اسْتَمَعَ هال وَشَقِيقَتُهُ وَصِهْرُهُ عَلَى مَضَضٍ إِلَى النَّصَائِحِ، وَتَخَلَّصُوا مِنْ خَيْمَتِهِمْ وَفَحَصُوا كَافَّةَ مُتَعَلَّقَاتِهِمْ؛ فَأَلْقَوُا الطَّعَامَ الْمُعَلَّبَ، وَالَّذِي جَعَلَ الرِّجَالَ الْآخَرِينَ يَضْحَكُونَ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ الْمُعَلَّبَ عَلَى طُرُقِ السَّفَرِ مَا هُوَ إِلَّا حُلْمٌ.

قَالَ أَحَدُ الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا يَضْحَكُونَ وَيُسَاعِدُونَهُمْ: «هَذِهِ الْبَطَّانِيَّاتُ تَلِيقُ بِفُنْدُقٍ، حَتَّى نِصْفُهَا سَيَكُونُ كَثِيرًا جِدًّا، تَخَلَّصُوا مِنْهَا. وَأَلْقُوا الْخَيْمَةَ وَكُلَّ هَذِهِ الْأَطْبَاقِ بَعِيدًا. مَنِ الَّذِي سَيَغْسِلُهُمْ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ؟ هَلْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ مُسَافِرُونَ عَلَى مَتْنِ قِطَارٍ فَاخِرٍ؟»

اسْتَمَرَّ الْأَمْرُ هَكَذَا وَهُمْ يَتَخَلَّصُونَ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. بَكَتْ مرسيدس عِنْدَمَا تَمَّ إِفْرَاغُ حَقَائِبِ مَلَابِسِهَا عَلَى الْأَرْضِ وَرُمِيَتْ كُلُّ مَلَابِسِهَا. كَانَتْ حَزِينَةً، وَعِنْدَمَا انْتَهَتْ مِنْ فَحْصِ أَشْيَائِهَا، فَحَصَتْ مُتَعَلَّقَاتِ الرَّجُلَيْنِ كَالْإِعْصَارِ.

بِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ الْحُمُولَةَ خَفَّتْ بِمِقْدَارِ النِّصْفِ، كَانَتْ لَا تَزَالُ كَبِيرَةً. ذَهَبَ تشارلز وَهال فِي الْمَسَاءِ وَاشْتَرَوْا سِتَّةَ كِلَابٍ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مِنَ الشَّمَالِ. هَذِهِ الْكِلَابُ — بَعْدَ إِضَافَتِهَا لِلْفَرِيقِ الْأَصْلِيِّ الْمُكَوَّنِ مِنْ سِتَّةِ كِلَابٍ، وَتيك وَكونا كَلْبَي الهاسكي اللَّذَيْنِ تَمَّ شِرَاؤُهُمَا مِنْ مُنْحَدَرِ نَهْرِ رينك فِي الرِّحْلَةِ الْقِيَاسِيَّةِ — جَعَلَتِ الْفَرِيقَ مُكَوَّنًا مِنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ كَلْبًا. وَلَكِنَّ الْكِلَابَ الْجَدِيدَةَ — رُغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ مُدَرَّبَةً — لَمْ تَكُنْ بَارِعَةً، فَبَدَتْ وَكَأَنَّهَا لَا تَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَمْ يُحِبَّهُمْ باك وَرِفَاقُهُ. وَقَدْ عَلَّمَ باك الْكِلَابَ الْجَدِيدَةَ بِسُرْعَةٍ مَا لَا يَجِبُ عَلَيْهَا فِعْلُهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَعْلِيمِهَا مَا يَجِبُ فِعْلُهُ. فَلَمْ تَكُنْ مَخْلُوقَةً لِهَذَا الطَّرِيقِ وَلَا الْعَمَلِ الشَّاقِّ الَّذِي يُصَاحِبُهُ. كَانَ مُعْظَمُهَا مُرْتَبِكًا وَخَائِفًا مِنَ الْمُحِيطِ الْغَرِيبِ وَالْمُعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَتَلَقَّاهَا.

وَنَظَرًا لِأَنَّ الْوَافِدِينَ الْجُدُدَ كَانُوا مَيْئُوسًا مِنْهُمْ، وَالْفَرِيقَ الْقَدِيمَ مُنْهَكٌ بِسَبَبِ الرَّكْضِ الْمُتَوَاصِلِ لِمَسَافَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ، كَانَ الْوَضْعُ غَيْرَ مُبَشِّرٍ بِالْخَيْرِ. وَلَكِنَّ الرَّجُلَيْنِ كَانَا مُبْتَهِجَيْنِ رُغْمَ ذَلِكَ، وَكَانَا فَخُورَيْنِ أَيْضًا؛ إِذْ إِنَّهُمَا لَمْ يُشَاهِدَا مِزْلَجَةً يَجُرُّهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ كَلْبًا مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ سَبَبٌ وَجِيهٌ كَيْ لَا يَجُرَّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ كَلْبًا مِزْلَجَةً وَاحِدَةً فِي الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، أَلَا وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِمِزْلَجَةٍ وَاحِدَةٍ أَنْ تَحْمِلَ طَعَامًا يَكْفِي أَرْبَعَةَ عَشَرَ كَلْبًا. وَلَكِنَّ تشارلز وَهال لَمْ يَكُونَا عَلَى عِلْمٍ بِذَلِكَ؛ فَقَدْ خَطَّطَا لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَى الْوَرَقِ، وَحَسَبا كَمِّيَّةَ الطَّعَامِ الَّتِي ظَنَّا أَنَّهُما سَيَحْتَاجانِهَا. وَكَانَ الْأَمْرُ يَبْدُو بَسِيطًا لِلْغَايَةِ.

قَادَ باك الْقَطِيعَ الْكَبِيرَ عَبْرَ الطَّرِيقِ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ حَيَوِيَّةٍ أَوْ نَشَاطٍ فِيهِ أَوْ فِي زُمَلَائِهِ. فَقَدْ كَانُوا يَبْدَءُونَ الرِّحْلَةَ وَهُمْ فِي غَايَةِ التَّعَبِ وَالْإِرهَاقِ، لَقَدْ قَطَعَ باك الْمَسَافَةَ بَيْنَ سولت ووتر وَداوسون أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَكَانَتْ فِكْرَةُ أَنَّهُ سَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ نَفْسَهُ مَرَّةً أُخْرَى — وَهُوَ مُنْهَكُ الْقُوَى بِهَذَا الشَّكْلِ — تُثِيرُ غَضَبَهُ بِشِدَّةٍ. لَمْ يَكُنْ يَقُومُ بِعَمَلِهِ بِحُبٍّ، وَكَانَ الْوَافِدُونَ الْجُدُدُ خَائِفِينَ، وَالْفَرِيقُ الْقَدِيمُ لَمْ يَكُنْ يَثِقُ فِي سَائِقِيهِ.

كَانَ باك يَعْلَمُ أَنَّ الْكِلَابَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ الثَّلَاثَةِ. فَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَقُومُونَ بِأَيِّ شَيْءٍ، وَمَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ اتَّضَحَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُمُ التَّعَلُّمُ، فَقَدْ كَانُوا كَسُولِينَ؛ يَسْتَغْرِقُونَ نِصْفَ اللَّيْلَةِ لِنَصْبِ مُخَيَّمٍ فَوْضَوِيٍّ، ثُمَّ نِصْفَ فَتْرَةِ الصَّبَاحِ لِحَزْمِ الْمُخَيَّمِ وَتَحْمِيلِ الْمِزْلَجَةِ بِطَرِيقَةٍ رَدِيئَةٍ جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْشَغِلُونَ طَوَالَ

الْيَوْمِ بِالتَّوَقُّفِ وَإِعَادَةِ تَرْتِيبِ الْحُمُولَةِ. وَفِي أَيَّامٍ أُخْرَى لَمْ يَسْتَطِيعُوا بَدْءَ الرِّحْلَةِ أَسَاسًا، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَقْطَعُوا كُلَّ يَوْمٍ الْمَسَافَةَ الَّتِي خَطَّطَ لَهَا الرَّجُلَانِ.

بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، كَانَ طَعَامُ الْكِلَابِ سَيَنْفَدُ مِنْهُمْ عَنْ قَرِيبٍ، وَقَدْ سَرَّعَ الرَّجُلَانِ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ بِإِطْعَامِ الْكِلَابِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، فَكَانَ الْوَافِدُونَ الْجُدُدُ يَأْكُلُونَ كَثِيرًا، وَعِنْدَمَا كَانَ الْفَرِيقُ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ بِضَعْفٍ، يَظُنُّ هال أَنَّ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْكُلُوا مَا يَكْفِي وَيُضَاعِفُ حِصَّتَهُمْ. وَعِنْدَمَا شَعَرَتْ مرسيدس بِالْأَسَفِ تِجَاهَ الْكِلَابِ وَلَمْ تَسْتَطِعْ إِقْنَاعَ أَخِيهَا بِإِعْطَائِهَا طَعَامًا إِضَافِيًّا، سَرَقَتْ مِنَ الْمَخْزُونِ وَأَطْعَمَتْهَا عِنْدَمَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلَانِ يُرَاقِبَانِهَا. وَلَمْ يَكُنْ باك وَكِلَابُ الهاسكي فِي حَاجَةٍ لِلطَّعَامِ؛ بَلْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ لِلرَّاحَةِ.

أَدْرَكَ هال فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ أَنَّ طَعَامَ الْكِلَابِ قَدْ نَفِدَ نِصْفُهُ، وَلَمْ يَكُونُوا قَدْ قَطَعُوا إِلَّا مَسَافَةً قَلِيلَةً مِنْ رِحْلَتِهِمْ. وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِيجَادُ طَعَامٍ لِلْكِلَابِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، لِذَا قَلَّلَ الْحِصَصَ قَلِيلًا وَحَاوَلَ زِيَادَةَ رِحْلَةِ كُلِّ يَوْمٍ. كَانَ مِنَ السَّهْلِ إِعْطَاءُ الْكِلَابِ طَعَامًا أَقَلَّ، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ حَمْلُهُمْ عَلَى السَّفَرِ أَسْرَعَ. كَمَا كَانَ الرَّجُلَانِ وَالْمَرْأَةُ حَانِقِينَ عَلَى بَعْضِهِمْ أَيْضًا.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، قَرَّرُوا أَخِيرًا تَرْكَ الْكِلَابِ السِّتَّةِ الْجَدِيدَةِ لِكَيْ تَرْتَاحَ وَتَسْتَرِدَّ عَافِيَتَهَا. بِحُلُولِ ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ الْأَشْخَاصُ الثَّلَاثَةُ غَاضِبِينَ مِنْ بَعْضِهِمْ طَوَالَ الْوَقْتِ وَيَتَعَامَلُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ بِغِلْظَةٍ. فَلَمْ يَعُدِ السَّفَرُ عَبْرَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ مُغَامَرَةً مُمْتِعَةً؛ فَكُلُّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ هُوَ الْجِدَالُ. فَكَانَتْ عَضَلَاتُ جَسَدِهِمْ وَعِظَامُهُمْ تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ، وَحَتَّى قُلُوبُهُمْ تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ.

وَعِنْدَمَا كَانَ تشارلز وَهال يَتَشَاجَرَانِ، كَانَ ذلك بِسَبَبِ اعْتِقَادِ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّهُ يَقُومُ بِأَكْثَرِ مِنْ حِصَّتِهِ فِي الْعَمَلِ. كَانَتْ مرسيدس تُوَافِقُ زَوْجَهَا أَحْيَانًا، وَتُوَافِقُ أَخَاهَا أَحْيَانًا أُخْرَى؛ وَالنَّتِيجَةُ شِجَارٌ عَائِلِيٌّ لَا يَنْتَهِي.

لَمْ تَكُنْ مرسيدس تُحِبُّ الطَّرِيقَ، كَمَا كَانَتْ مُعْتَادَةً عَلَى مُسَاعَدَةِ النَّاسِ لَهَا، وَلَكِنَّ زَوْجَهَا وَأَخَاهَا لَمْ يَعْرِضَا الْمُسَاعَدَةَ قَطُّ. بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، كَانَا يَتَذَمَّرَانِ مِنْهَا، وَفِي الْمُقَابِلِ كَانَتْ هِيَ تُعَامِلُهُمَا مُعَامَلَةً سَيِّئَةً. وَلَمْ تَعُدْ تَهْتَمُّ لِأَمْرِ الْكِلَابِ، وَنَظَرًا لِأَنَّهَا كَانَتْ مُتْعَبَةً وَمُتَأَلِّمَةً أَصَرَّتْ عَلَى رُكُوبِ الْمِزْلَجَةِ. لَمْ تَكُنْ ضَخْمَةَ الْحَجْمِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَزِنُ مِائَةً

وَعِشْرِينَ رَطْلًا، وَقَدْ أَتْعَبَ الْوَزْنُ الْإِضَافِيُّ الْكِلَابَ أَكْثَرَ. رَكِبَتِ الْمِزْلَجَةَ لِعِدَّةِ أَيَّامٍ حَتَّى سَقَطَتِ الْكِلَابُ وَلَمْ تَعُدْ تَسْتَطِيعُ الْجَرَّ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا تشارلز وَهال لِكَيْ تَنْزِلَ مِنْ عَلَى الْمِزْلَجَةِ وَتَسِيرَ.

وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، حَمَلُوهَا وَأَنْزَلُوهَا مِنْ عَلَى الْمِزْلَجَةِ، لَكِنَّهُمَا لَمْ يُكَرِّرَا هَذِهِ الْفَعْلَةَ مَرَّةً أُخْرَى لِأَنَّهَا جَلَسَتْ عَلَى الطَّرِيقِ وَكَانَتْ غَاضِبَةً مِنْهُمَا بِشِدَّةٍ. مَضَوْا فِي طَرِيقِهِمْ وَلَكِنَّ مرسيدس لَمْ تَتَحَرَّكْ. وَبَعْدَ أَنْ سَارُوا ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ، أَفْرَغُوا حُمُولَةَ الْمِزْلَجَةِ وَعَادُوا مِنْ أَجْلِهَا وَأَجْلَسُوهَا مُجَدَّدًا عَلَى الْمِزْلَجَةِ.

كَانُوا يُعَامِلُونَ بَعْضَهُمُ الْبَعْضَ مُعَامَلَةً سَيِّئَةً، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُعَامِلُونَ كِلَابَهُمْ بِطَرِيقَةٍ أَسْوَأَ. كَانَ هال وَضِيعًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْكِلَابِ، وَعِنْدَمَا نَفِدَ طَعَامُ الْكِلَابِ، قَايَضَ سِكِّينَهُ الْكَبِيرَ وَمُسَدَّسَهُ اللَّذَيْنِ كَانَ يَحْمِلُهُمَا فِي حِزَامِهِ فِي مُقَابِلِ لَحْمٍ قَدِيمٍ مُجَمَّدٍ. وَكَانَ هَذَا بَدِيلًا رَدِيئًا لِلطَّعَامِ، مِثْلَ مُحَاوَلَةِ أَكْلِ شَرَائِحَ مِنَ الْحَدِيدِ.

خِلَالَ كُلِّ ذَلِكَ، كَانَ باك يَتَرَنَّحُ فِي مُقَدِّمَةِ الْفَرِيقِ كَأَنَّهُ يَعِيشُ كَابُوسًا. كَانَ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ عِنْدَ اسْتِطَاعَتِهِ، وَعِنْدَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ كَانَ يَسْقُطُ وَيَرْقُدُ فِي مَكَانِهِ بَيْنَمَا يَدْفَعُهُ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصُ حَتَّى يَسْتَطِيعَ الْوُقُوفَ مُجَدَّدًا. وَاخْتَفَتْ كُلُّ الْقُوَّةِ وَاللَّمَعَانِ مِنْ فَرْوِهِ الْجَمِيلِ، فَكَانَ الشَّعْرُ يَنْسَدِلُ مُتَلَبِّدًا فِي كُتَلٍ، وَاخْتَفَتْ عَضَلَاتُهُ، وَأَصْبَحَ نَحِيفًا لِلْغَايَةِ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ ضِلْعٍ وَعَظْمَةٍ فِي جَسَدِهِ كَانَتْ بَارِزَةً تَحْتَ جِلْدِهِ. كَانَتْ حَالَتُهُ تُحَطِّمُ الْقُلُوبَ، وَلَكِنَّ قَلْبَ باك لَمْ يَكُنْ قَلْبًا يَسْهُلُ تَحْطِيمُهُ.

لَمْ يَكُنْ فَرِيقُ باك أَحْسَنَ مِنْهُ حَالًا، فَقَدْ بَدَوْا وَكَأَنَّهُمْ هَيَاكِلُ عَظْمِيَّةٌ تَسِيرُ عَلَى الْأَرْضِ، كَانَ عَدَدُهُمْ سَبْعَةً مِنْ ضِمْنِهِمْ باك، وَعِنْدَمَا كَانُوا يَتَوَقَّفُونَ، كَانُوا يَسْقُطُونَ فِي السَّرْجِ كَأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ.

ثُمَّ جَاءَ يَوْمٌ سَقَطَ فِيهِ بيلي وَلَمْ يَعُدْ يَسْتَطِيعُ التَّكْمِلَةَ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَتْرُكُوهُ وَرَاءَهُمْ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، سَقَطَتْ كونا وَكَانَ يَجِبُ تَرْكُهَا أَيْضًا، لَمْ يَتَبَقَّ مِنْهُمْ سِوَى خَمْسَةٍ فَقَطْ: جو الَّذِي كَانَ مُنْهَكًا بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ خَبِيثًا، وَبايك الَّذِي كَانَ يَعْرُجُ وَيَتَأَلَّمُ، وَسوليكس ذِي الْعَيْنِ الْوَاحِدَةِ الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ يُرِيدُ الْعَمَلَ وَلَكِنَّهُ كَانَ حَزِينًا أَنَّ قُوَاهُ قَدْ خَارَتْ، وَتيك الَّذِي لَمْ يَكُنْ قَدْ سَافَرَ بَعِيدًا فِي ذَلِكَ الشِّتَاءِ وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتْعَبًا أَكْثَرَ

مِنَ الْبَقِيَّةِ، وَباك الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ قَائِدَ الْفَرِيقِ وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتْعَبًا بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ لَا يَقْوَى عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ، وَكَانَ يَتَمَكَّنُ مِنَ الْبَقَاءِ عَلَى الطَّرِيقِ مُعْتَمِدًا فَقَطْ عَلَى الْإِحْسَاسِ بِأَقْدَامِهِ.

الفصل الثامن

جُون ثُورنتُون

رُغْمَ أَنَّ الطَّقْسَ كَانَ رَبِيعِيًّا بَدِيعًا، لَمْ يَشْعُرْ بِهِ لَا الْكِلَابُ وَلَا الْأَشْخَاصُ الْمُسَافِرُونَ مَعَهُمْ، كُلَّ يَوْمٍ كانَتِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ مُبَكِّرًا لِلْغَايَةِ وَتَغْرُبُ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ. فَكَانَ الْفَجْرُ يَبْزُغُ فِي الثَّالِثَةِ صَبَاحًا وَيَظَلُّ نُورُ النَّهَارِ مُضِيئًا حَتَّى التَّاسِعَةِ لَيْلًا.

كَانَتْ قَطَرَاتُ الْمَاءِ تَسِيلُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ التِّلَالِ، فَقَدْ بَدَأَ الثَّلْجُ فِي الذَّوَبَانِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَتَشَكَّلَتْ فَتَحَاتُ الْهَوَاءِ فِي الْجَلِيدِ وَانْفَتَحَتِ الشُّرُوخُ وَاتَّسَعَتْ، بَيْنَمَا سَقَطَتِ الطَّبَقَاتُ الرَّقِيقَةُ مِنَ الْجَلِيدِ فِي النَّهْرِ أَسْفَلَهَا.

وَمَعَ تَسَاقُطِ الْكِلَابِ وَاحِدًا تِلْوَ الْآخَرِ، وَبُكَاءِ مرسيدس، وَصُرَاخِ هال الْغَاضِبِ وَعَيْنَيْ تشارلز الدَّامِعَتَيْنِ، وَصَلَ الْفَرِيقُ مُتَرَنِّحًا إِلَى مُخَيَّمِ جون ثورنتون عِنْدَ مَصَبِّ نَهْرِ وايت. وَبِمُجَرَّدِ مَا تَوَقَّفُوا، انْهَارَتِ الْكِلَابُ عَلَى الْأَرْضِ، وَجَفَّفَتْ مرسيدس دُمُوعَهَا وَنَظَرَتْ إِلَى جون ثورنتون. جَلَسَ تشارلز عَلَى قِطْعَةِ حَطَبٍ لِيَرْتَاحَ، جَلَسَ بِبُطْءٍ وَحِرْصٍ شَدِيدَيْنِ لِأَنَّ جَسَدَهُ كَانَ مُتَخَشِّبًا، وَتَوَلَّى هال مَسْئُولِيَّةَ الْحَدِيثِ مَعَ صَاحِبِ الْمُخَيَّمِ. كَانَ جون ثورنتون يَبْرِي مِقْبَضَ فَأْسٍ، وَاسْتَمَرَّ فِي عَمَلِهِ وَهُوَ يَسْمَعُ، وَكَانَ يُعْطِي رُدُودًا مُقْتَضَبَةً وَحَتَّى عِنْدَمَا يُسْأَلُ كَانَ يُعْطِي نَصَائِحَ أَكْثَرَ اقْتِضَابًا. وَقَدْ أَدْرَكَ ثورنتون مَاهِيَّةَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ عَلَى الْفَوْرِ، وَعِنْدَمَا كَانَ يُعْطِيهِمُ النَّصَائِحَ كَانَ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَمِعُوا لَهَا.

قَالَ هال بَعْدَ أَنْ نَصَحَهُ ثورنتون بِعَدَمِ السَّيْرِ عَلَى الْجَلِيدِ: «قَالُوا لَنَا إِنَّ الْجَلِيدَ يَنْكَسِرُ عَلَى الطَّرِيقِ وَالْقَاعَ يَسْقُطُ، وإِنَّ أَفْضَلَ شَيْءٍ يُمْكِنُنَا فِعْلُهُ هُوَ الِانْتِظَارُ. وَلَكِنَّهُم قَالُوا لَنَا كَذَلِكَ إِنَّنَا لَنْ نَصِلَ إِلَى نَهْرِ وايت، وَهَا نَحْنُ ذَا.»

أَجَابَ جون ثورنتون: «وَلَقَدْ أَخْبَرُوكُمُ الْحَقِيقَةَ. الْقَاعُ سَيَسْقُطُ فِي أَيَّةِ لَحْظَةٍ. وَحْدَهُمُ الْمُغَفَّلُونَ أَصْحَابُ حَظِّ الْمُغَفَّلِينَ الْأَعْمَى يُمْكِنُهُمْ قَطْعُ كُلِّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ. لَمْ أَكُنْ لِأُجَازِفَ بِحَيَاتِي عَلَى هَذَا الْجَلِيدِ مُقَابِلَ كُلِّ الذَّهَبِ فِي ألاسكا.»

قَالَ هال: «هَذَا لِأَنَّكَ لَسْتَ مُغَفَّلًا عَلَى مَا أَعْتَقِدُ. عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، سَنَسْتَمِرُّ فِي الطَّرِيقِ إِلَى داوسون. انْهَضْ يَا باك! انْهَضْ! هَيَّا انْطَلِقْ!»

تَابَعَ ثورنتون عَمَلَهُ، فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِيقَافِ مُغَفَّلٍ مَا هِيَ إِلَّا مَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ، كَمَا أَنَّ تَخَلُّصَ الْعَالَمِ مِنْ مُغَفَّلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ لَيْسَ شَيْئًا سَيِّئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَلَكِنَّ الْفَرِيقَ لَمْ يَنْهَضْ بَعْدَ أَوَامِرِ هال، فَأَخَذَ هال يَدْفَعُ الْكِلَابَ وَيَرْكُلُهَا وَاسْتَخْدَمَ سَوْطَهُ. عَضَّ جون ثورنتون عَلَى شَفَتَيْهِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلتَّحَكُّمِ فِي أَعْصَابِهِ. كَانَ سوليكس هُوَ أَوَّلُ مَنْ زَحَفَ نَاهِضًا، تَبِعَهُ تيك، ثُمَّ جو وَهُوَ يَصْرُخُ أَلَمًا، وَسَقَطَ بايك مَرَّتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُقُوفِ. وَلَكِنَّ باك لَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا، كَانَ مُسْتَلْقِيًا فِي هُدُوءٍ فِي مَكَانِ سُقُوطِهِ، وَمَهْمَا فَعَلَ هال، لَمْ يَتَحَرَّكْ باك قِيدَ أُنْمُلَةٍ؛ وَلَمْ يَئِنَّ أَوْ يُقَاوِمَ. وَعِدَّةَ مَرَّاتٍ، كَانَ ثورنتون عَلَى وَشْكِ التَّحَدُّثِ، وَلَكِنَّهُ غَيَّرَ رَأْيَهُ، وَمَع اسْتِمْرَارِ مُعَامَلَةِ هال السَّيِّئَةِ لِباك، هَبَّ ثورنتون وَاقِفًا مِنْ مَكَانِهِ وَأَخَذَ يَقْطَعُ الْمَكَانَ جِيئَةً وَذَهَابًا.

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي يَفْشَلُ فِيهَا باك، وَقَدْ أَثَارَ هَذَا غَضَبَ هال. كَانَ باك لَا يَزَالُ مُصِرًّا عَلَى عَدَمِ التَّحَرُّكِ، فَعَلَى غِرَارِ زُمَلَائِهِ فِي الْفَرِيقِ بِالْكَادِ كَانَ يَتَمَكَّنُ مِنَ الْوُقُوفِ. لَقَدْ عَقَدَ باك الْعَزْمَ عَلَى عَدَمِ النُّهُوضِ مِنْ مَكَانِهِ، فَقَدْ كَانَ لَدَيْهِ إِحْسَاسٌ أَنَّ شَيْئًا سَيِّئًا سَيَحْدُثُ، وَقَدْ رَاوَدَهُ ذَلِكَ الشُّعُورُ عِنْدَ تَوَقُّفِهِمْ عِنْدَ مُخَيَّمِ جون ثورنتون. وَطَوَالَ الْيَوْمِ، بَدَا وَكَأَنَّ الْجَلِيدَ الرَّقِيقَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ عَلَى وَشْكِ الِانْهِيَارِ؛ فَقَدْ كَانَ باك ذَكِيًّا وَخَبِيرًا بِمَا يَكْفِي لِكَيْ يَعْلَمَ ذَلِكَ. فَرَفَضَ التَّحَرُّكَ؛ فَلَقَدْ عَانَى الْكَثِيرَ وَخَارَتْ قُوَاهُ لِدَرَجَةِ أَنَّ شَيْئًا لَمْ يَعُدْ يُؤْذِيهِ الْآنَ، حَتَّى ضَرَبَاتُ هال.

وَفَجْأَةً وَبِدُونِ إِنْذَارٍ، قَفَزَ جون ثورنتون عَلَى هال وَطَرَحَهُ أَرْضًا. صَرَخَتْ مرسيدس وَنَظَرَ تشارلز بِأَسًى، وَمَسَحَ عَيْنَيْهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقِفْ بِسَبَبِ تَيَبُّسِ جَسَدِهِ. وَقَفَ جون ثورنتون أَمَامَ باك وَجَاهَدَ لِلتَّحَكُّمِ فِي أَعْصَابِهِ، إِذْ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ الْغَضَبُ مَبْلَغَهُ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْحَدِيثَ.

ثُمَّ قَالَ أَخِيرًا: «إِذَا آذَيْتَ هَذَا الْكَلْبَ مُجَدَّدًا، فَسَأَضْرِبُكَ مَرَّةً أُخْرَى.»

أَجَابَ هال وَهُوَ يَمْسَحُ فَمَهُ: «إِنَّهُ كَلْبِي أَنَا. ابْتَعِدْ عَنْ طَرِيقِي وَإِلَّا سَأَضْرِبُكَ. أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى داوسون.»

قَالَ ثورنتون: «لَيْسَ بِهَذَا الْكَلْبِ.»

صَاحَتْ مرسيدس: «احْتَرِسْ يَا هال، نَحْنُ لَا نُرِيدُ الْمَتَاعِبَ.»

أَجَابَهَا هال: «لَا تَتَدَخَّلِي فِي الْأَمْرِ.»

طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ ثورنتون لَا يَزَالُ يَقِفُ بَيْنَ هال وَباك وَلَمْ يَقُمْ بِأَيِّ حَرَكَةٍ لِلابْتِعَادِ عَنِ الطَّرِيقِ. رَفَعَ هال سَوْطَهُ، وَلَكِنَّ ثورنتون ضَرَبَ يَدَ هال بِيَدِ الْفَأْسِ، فَسَقَطَ السَّوْطُ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ ضَرَبَ يَدَ هال بِقُوَّةٍ مَرَّةً أُخْرَى عِنْدَمَا حَاوَلَ اسْتِعَادَتَهُ، ثُمَّ انْحَنَى ثورنتون وَالْتَقَطَ السَّوْطَ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ وَأَلْقَى بِهِ بَعِيدًا، ثُمَّ أَخْرَجَ سِكِّينَهُ وَحَرَّرَ باك مِنَ السَّرْجِ.

كَانَ هال مُرْهَقًا جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُ الْقِتَالَ، كَمَا أَنَّ باك كَانَ مُرْهَقًا بِشِدَّةٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ الاسْتِمْرَارَ فِي الْفَرِيقِ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، فَقَالَ هال لِثورنتون: «حَسَنًا، لَقَدْ رَبِحْتَ. احْتَفِظْ بِالْكَلْبِ عَدِيمِ الْجَدْوَى، لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ.»

بَعْدَ بِضْعِ دَقَائِقَ، انْطَلَقُوا مِنَ الْمُخَيَّمِ وَعَبْرَ الْجَلِيدِ الَّذِي يُغَطِّي النَّهْرَ، سَمِعَهُمْ باك وَهُمْ يَرْحَلُونَ وَرَفَعَ رَأْسَهُ لِيُشَاهِدَهُمْ، كَانَتِ الْكِلَابُ تَعْرُجُ وَتَتَرَنَّحُ، وَكَانَتْ مرسيدس تَرْكَبُ الْمِزْلَجَةَ وَهال يَقُودُ، بَيْنَمَا كَانَ تشارلز يَسِيرُ مُتَعَثِّرًا خَلْفَهُمْ.

جَثَا ثورنتون بِجَانِبِ باك وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُهُ بِيَدَيْهِ الْخَشِنَتَيْنِ اللَّطِيفَتَيْنِ بَحْثًا عَنْ أَيِّ إِصَابَاتٍ. وَرَاقَبَ هُوَ وَباك الْمِزْلَجَةَ وَهِيَ تَتَزَحْلَقُ عَلَى الْجَلِيدِ، وَفَجْأَةً، شَاهَدَا مُؤَخِّرَتَهَا تَسْقُطُ لِأَسْفَلَ، ثُمَّ سَمِعَا مرسيدس تَصْرُخُ، وَرَأَيَا تشارلز يَرْجِعُ وَيَجْرِي لِلْخَلْفِ، ثُمَّ سَقَطَ جُزْءٌ كَامِلٌ مِنَ الْجَلِيدِ بَيْنَمَا اخْتَفَى الْبَشَرُ وَالْكِلَابُ. لَقَدِ انْكَسَرَ الْجَلِيدُ وَسَقَطَ الْقَاعُ.

شَاهَدَا الْفَرِيقَ وَهُوَ يُكَافِحُ بِدُونِ الْمِزْلَجَةِ أَوْ أَيٍّ مِنْ مُتَعَلَّقَاتِهِمْ، وَسَحَبُوا أَنْفُسَهُمْ وَالْكِلَابَ إِلَى الضَّفَّةِ الْمُقَابِلَةِ. وَبِدُونِ طَلَبِ أَيِّ مُسَاعَدَةٍ مِنْ ثورنتون، مَشَى الْفَرِيقُ نَحْوَ الْجِهَةِ الَّتِي أَتَوْا مِنْهَا تِجَاهَ الْمُخَيَّمِ التَّالِي، حَيْثُ سَيُجَفِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَحْصُلُونَ عَلَى بَعْضِ التَّدْفِئَةِ قَبْلَ الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِهِمْ.

نَظَرَ جون ثورنتون وَباك إِلَى بَعْضِهِمَا الْبَعْضِ.

قَالَ جون ثورنتون: «أَيُّهَا الشَّيْطَانُ الْمِسْكِينُ.» وَلَعَقَ باك يَدَهُ.

فِي دِيسَمْبِرَ الْمَاضِي، تَبَلَّلَتْ قَدَمَا جون ثورنتون وَتَجَمَّدَتَا فِي الْبَرْدِ. فَأَرَاحَهُ زُمَلَاؤُهُ ثُمَّ تَرَكُوهُ لِيَتَحَسَّنَ بَيْنَمَا سَافَرُوا بِاتِّجَاهِ مَنْبَعِ النَّهْرِ لِلَّحَاقِ بِطَوْفٍ يَتَّجِهُ إِلَى داوسون. كَانَ لَا يَزَالُ يَعْرُجُ قَلِيلًا عِنْدَمَا أَنْقَذَ باك، وَلَكِنْ مَعَ تَحَوُّلِ الْجَوِّ لِلدِّفْءِ تَوَقَّفَ عَنِ الْعَرَجِ.

وَعَلَى غِرَارِ جون ثورنتون، اسْتَغَلَّ باك هَذِهِ الْأَيَّامَ لِيَسْتَرِدَّ عَافِيَتَهُ؛ فَكَانَ يَسْتَلْقِي بِجَانِبِ ضَفَّةِ النَّهْرِ طَوَالَ فَتْرَةِ الْعَصْرِ الطَّوِيلَةِ فِي الرَّبِيعِ، يُشَاهِدُ الْمِيَاهَ الْجَارِيَةَ وَيَسْتَمِعُ إِلَى غِنَاءِ الطُّيُورِ وَأَصْوَاتِ الطَّبِيعَةِ، وَقَدِ اسْتَعَادَ قُوَّتَهُ بِبُطْءٍ.

كَانَ الشُّعُورُ بِالرَّاحَةِ جَمِيلًا بَعْدَ السَّفَرِ لِمَسَافَةِ ثَلَاثَةِ آلَافِ مِيلٍ، وَشَعَرَ باك بِالْخُمُولِ بَيْنَمَا تُشْفَى جُرُوحُهُ وَتَتَعَافَى عَضَلَاتُهُ وَيَعُودُ اللَّحْمُ لِيُغَطِّيَ عَظْمَهُ. كَانُوا جَمِيعًا — باك وَجون ثورنتون وَسكيت وَفيج — يَشْعُرُونَ بِالْخُمُولِ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ الطَّوْفَ لِيَعُودَ وَيَأْخُذَهُمْ إِلَى داوسون. كَانَتْ سكيت كَلْبَةً صَغِيرَةً، وَقَدْ كَوَّنَتْ صَدَاقَةً سَرِيعًا مَعَ باك الَّذِي كَانَ مُرْهَقًا لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَا يَقْوَى حَتَّى عَلَى إِبْعَادِهَا. كَانَتْ مِثْلَ الطَّبِيبِ الْخَاصِّ بِهِ؛ وَبِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي تَغْسِلُ بِهَا الْقِطَّةُ الْأُمُّ صِغَارَهَا، كَانَتْ سكيت تَغْسِلُ وَتُنَظِّفُ جِرَاحَ باك. كُلُّ صَبَاحٍ بَعْدَ أَنْ يُنْهِيَ إِفْطَارَهُ، كَانَتْ تَعْتَنِي بِهِ حَتَّى بَدَأَ يَتَطَلَّعُ لِهَذِهِ الْجِلْسَاتِ. أَمَّا فيج، فَقَدْ كَانَ كَلْبًا أَسْوَدَ اللَّوْنِ ضَخْمَ الْجُثَّةِ، وَكَانَ لَطِيفًا تَمَامًا مِثْلَ سكيت، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُظْهِرْ ذَلِكَ كَثِيرًا مِثْلَهَا.

وَلِدَهْشَةِ باك، لَمْ يُعَامِلْهُ هَذَان الْكَلْبَانِ بِطَرِيقَةٍ سَيِّئَةٍ، وَلَمْ يَتَنَافَسَا مَعَهُ، بَلْ كَانَا لَطِيفَيْنِ وَكُرَمَاءَ مِثْلَ جون ثورنتون نَفْسِهِ.

بَدَأَ باك يَشْعُرُ بِالْحُبِّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ. فَلَمْ يَخْتَبِرْ ذَلِكَ الشُّعُورَ مِنْ قَبْلُ فِي مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر فِي وَادِي سانتا كلارا الْمُشْمِسِ؛ فَمَعَ أَبْنَاءِ الْقَاضِي عِنْدَمَا كَانُوا يَصْطَادُونَ، كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ شَرِيكُهُمْ، وَمَعَ أَحْفَادِ الْقَاضِي، كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ الْحَارِسُ، وَمَعَ الْقَاضِي، كَانَ يَشْعُرُ أَنَّهُ صَدِيقُهُ، وَلَكِنْ مَعَ جون ثورنتون، تَذَوَّقَ باك الْحُبَّ.

فَهَذَا الرَّجُلُ أَنْقَذَ حَيَاتَهُ، إِذْ كَانَ باك يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ الرِّحْلَةِ مَعَ هال وَتشارلز وَمرسيدس. كَمَا كَانَ جون ثورنتون أَفْضَلَ سَيِّدٍ حَصَلَ عَلَيْهِ أَيْضًا. فَكَانَ الرِّجَالُ الْآخَرُونَ يَعْتَنُونَ بِكِلَابِهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مَنْطِقِيًّا، أَمَّا ثورنتون فَكَانَ يَعْتَنِي بِكِلَابِهِ وَكَأَنَّهَا أَوْلَادُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَلَّا يَفْعَلَ ذَلِكَ.

وَكَانَ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ بِلُطْفٍ دَائِمًا، وَكَانَ يُمْسِكُ بِرَأْسِ باك بِقُوَّةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيُرِيحُ رَأْسَهُ عَلَى رَأْسِ باك، وَيَهُزُّهُ بِقُوَّةٍ، وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ، كَانَ يَنْعَتُ باك بِأَلْقَابٍ سَيِّئَةٍ لِلْمَرَحِ فَقَطْ. لَمْ يَعْرِفْ باك أَفْضَلَ مِنْ هَذَا الْعِنَاقِ الْخَشِنِ وَصَوْتِ جون ثورنتون. وَمَعَ كُلِّ هِزَّةٍ كَانَ باك يَشْعُرُ أَنَّ قَلْبَهُ سَيَقْفِزُ مِنْ جَسَدِهِ فَرَحًا. وَعِنْدَمَا كَانَ ثورنتون يَتْرُكُهُ، كَانَ باك يَقْفِزُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَفَمُهُ يَضْحَكُ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ وَيَقِفُ سَاكِنًا. كَانَ جون ثورنتون يُحَدِّقُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: «وَكَأَنَّكَ تَسْتَطِيعُ التَّحَدُّثَ إِلَيَّ أَيُّهَا الْفَتَى!»

كَانَ باك يُظْهِرُ حُبَّهُ بِطَرِيقَةٍ تَكَادُ تُشْبِهُ الْغَضَبَ، كَانَ كَثِيرًا مَا يَأْخُذُ يَدَ ثورنتون فِي فَمِهِ وَيَتَظَاهَرُ بِالْعَضِّ؛ فَكَانَ يَفْهَمُ أَنَّ ثورنتون يَنْعَتُهُ بِأَلْقَابٍ سَيِّئَةٍ لِلْمَرَحِ فَقَطْ، وَكَانَ ثورنتون يَفْهَمُ أَنَّ هَذِهِ الْعَضَّاتِ الْمُزَيَّفَةَ كَانَتْ مِثْلَ الْعِنَاقِ.

كَانَ باك يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ عَارِمَةٍ عِنْدَمَا يَلْمِسُهُ ثورنتون أَوْ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْعَ أَبَدًا لِذَلِكَ. أَمَّا سكيت، فَكَانَتْ مُخْتَلِفَةً؛ إِذْ كَانَتْ تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا تَحْتَ يَدِ ثورنتون وَتَظَلُّ تَكِزُّهُ بِرِفْقٍ حَتَّى يُدَاعِبَهَا. وَكَانَ فيج يَتَقَدَّمُ إِلَى ثورنتون وَيُرِيحُ رَأْسَهُ الْكَبِيرَ عَلَى رُكْبَتِهِ. أَمَّا باك، فَكَانَ سَعِيدًا بِحُبِّهِ لِثورنتون عَنْ بُعْدٍ، فَكَانَ يَسْتَلْقِي تَحْتَ قَدَمَيْ ثورنتون، مُنْتَبِهًا وَمُتَحَمِّسًا، يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ وَيَتَأَمَّلُهُ. وَكَانَ مُهْتَمًّا بِكُلِّ تَعْبِيرٍ وَكُلِّ حَرَكَةٍ أَوْ تَغْيِيرٍ، أَوْ كَانَ يَسْتَلْقِي بَعِيدًا، وَيُرَاقِبُ حَرَكَةَ جَسَدِ جون ثورنتون. وَقَدْ أَصْبَحَ الرَّجُلُ وَالْكَلْبُ مُقَرَّبَيْنِ مِنْ بَعْضِهِمَا جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُ عِنْدَمَا كَانَ باك يُحَدِّقُ فِيهِ، كَانَ ثورنتون يَشْعُرُ بِذَلِكَ وَيَلُفُّ رَأْسَهُ وَيُحَدِّقُ فِي الْكَلْبِ بِدُونِ حَدِيثٍ.

وَعَلَى مَدَارِ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ بَعْدَ إِنْقَاذِهِ، لَمْ يُحِبَّ باك أَنْ يَبْتَعِدَ ثورنتون عَنْ نَاظِرَيْهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ يَتْبَعُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَكُلُّ أَسْيَادِهِ السَّابِقِينَ قَدْ تَرَكُوهُ، وَكَانَ خَائِفًا أَنْ يَتْرُكَهُ ثورنتون مِثْلَمَا تَرَكَهُ بيرو وَفرانسوا وَالسَّائِقُ الِاسْكُتْلَنْدِيُّ، حَتَّى لَيلًا فِي أَحْلَامِهِ كَانَ خَائِفًا، وَعِنْدَمَا كَانَ يَحْدُثُ ذَلِكَ، كَانَ يَهُبُّ مِنْ نَوْمِهِ وَيَتَسَلَّلُ فِي اللَّيْلِ الْبَارِدِ إِلَى الْخَيْمَةِ، وَهُنَاكَ كَانَ يَقِفُ وَيَسْتَمِعُ إِلَى صَوْتِ أَنْفَاسِ سَيِّدِهِ.

رُغْمَ حُبِّهِ الْعَظِيمِ لِجون ثورنتون، كَانَتِ الْحَيَاةُ عَلَى الطَّرِيقِ قَدْ أَكْسَبَتْ باك الشَّرَاسَةَ وَالدَّهَاءَ. فَبِسَبَبِ حُبِّهِ الْكَبِيرِ، لَمْ يَسْتَطِعْ السَّرِقَةَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ لَحْظَةً فِي السَّرِقَةِ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ آخَرَ فِي أَيِّ مُخَيَّمٍ آخَرَ، وَكَانَ مَكْرُهُ يُمَكِّنُهُ مِنَ الْقِيَامِ بِذَلِكَ دُونَ أَنْ يَكْشِفَ أَحَدٌ أَمْرَهُ.

كَانَ فِي وَجْهِهِ وَجَسِدِهِ نُدُوبٌ مِنْ كُلِّ الْمَعَارِكِ الَّتِي خَاضَهَا مَعَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، وَكَانَ لَا يَزَالُ بِإِمْكَانِهِ الْقِتَالُ بِضَرَاوَتِهِ الْمُعْتَادَةِ. وَكَانَ سكيت وَفيج أَلْطَفَ مِنْ أَنْ يَتَعَارَكَا مَعَهُ، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمَا كَلْبَا جون ثورنتون، وَلَكِنْ كَانَ باك يُحَاوِلُ الْعِرَاكَ مَعَ أَيِّ كَلْبٍ آخَرَ يَلْقَاهُ.

كَانَ يَبْدُو وَيَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ عُمْرِهِ الْحَقِيقِيِّ، فَكَانَ يَتَحَوَّلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى كَلْبٍ بَرِّيٍّ. وَأَحْيَانًا، بَيْنَمَا يَسْتَلْقِي بِجَانِبِ جون ثورنتون أَمَامَ النَّارِ، كَانَ باك يَشْعُرُ بِالرَّغْبَةِ فِي الرَّكْضِ إِلَى الْغَابَةِ الْمُظْلِمَةِ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ، وَلَا لِمَاذَا عَلَيْهِ الرَّكْضُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَتَذَكَّرُ حُبَّهُ لِجون ثورنتون فَيَعُودُ إِلَى جِوَارِ النَّارِ مُجَدَّدًا.

كَانَ ثورنتون هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَمْنَعُ باك مِنَ الْهُرُوبِ، كُلُّ الْأَشْخَاصِ الْآخَرِينَ لَمْ يَعْنُوا لَهُ شَيْئًا. رُبَّمَا يُرَبِّتُ عَلَيْهِ الْمُسَافِرُونَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ، وَكَانَ يُمْكِنُهُ النُّهُوضُ مِنْ جِوَارِ رَجُلٍ شَدِيدِ اللُّطْفِ وَالِابْتِعَادِ عَنْهُ. وَعِنْدَمَا عَادَ شَرِيكَا ثورنتون، هانز وبيت، رَفَضَ باك الِاهْتِمَامَ بِوُجُودِهِمَا حَتَّى عَرَفَ أَنَّهُمَا مُقَرَّبَانِ مِنْ ثورنتون. بَعْدَ ذَلِكَ، كَانَ يَتَصَرَّفُ وَكَأَنَّهُ يُقَدِّمُ لَهُمَا مَعْرُوفًا بِالسَّمَاحِ لَهُمَا بِالتَّعَامُلِ مَعَهُ بِلُطْفٍ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ الطَّوْفُ إِلَى داوسون، كَانَا قَدْ فَهِمَا باك وَطُرُقَهُ وَلَمْ يُحَاوِلَا أَنْ يَكُونَا لُطَفَاءَ مَعَهُ كَمَا كَانَا مَعَ سكيت وفيج.

وَلَكِنَّ حُبَّهُ لِثورنتون كَانَ يَكْبُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا. كَانَ ثورنتون الرَّجُلَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُمْكِنُهُ وَضْعُ حَقِيبَةٍ عَلَى ظَهْرِ باك عِنْدَمَا كَانُوا مُسَافِرِينَ فِي الصَّيْفِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ صَعْبٌ عَلَى باك إِذَا طَلَبَهُ مِنْهُ ثورنتون. وَذَاتَ يَوْمٍ، كَانَ الرِّجَالُ وَالْكِلَابُ يَجْلِسُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ حَافَةِ جُرُفٍ يَنْحَدِرُ إِلَى وَادٍ صَخْرِيٍّ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثِمِائَةِ قَدَمٍ. كَانَ جون ثورنتون يَجْلِسُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَافَةِ وَكَانَ باك عِنْدَ كَتِفِهِ. ثُمَّ طَرَأَتْ عَلَى ذِهْنِ ثورنتون فِكْرَةٌ، فَسَأَلَ هانز وَبيت عَنْ رَأْيِهِمَا فِي مَدَى إِخْلَاصِ باك لَهُ.

قَالَ هانز: «لَمْ أَرَ كَلْبًا فِي إِخْلَاصِهِ.» وَأَوْمَأَ بيت مُوَافِقًا.

قَالَ ثورنتون: «دَعُونِي أُرِيكُمْ كَمْ هُوَ مُخْلِصٌ فِي الْحَقِيقَةِ، شَاهِدُوا ذَلِكَ.»

اسْتَدَارَ ثورنتون نَحْوَ باك الَّذِي كَانَ يُبْقِي عَيْنَيْهِ عَلَى سَيِّدِهِ طَوَالَ الْوَقْتِ.

فَأَمَرَهُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الْجُرُفِ: «اقْفِزْ يَا باك!»

فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ، كَانَ ثورنتون يَجْذِبُ باك مِنْ عَلَى الْحَافَةِ بِمُسَاعَدَةِ هانز وبيت.

قَالَ بيت بَعْدَ انْتِهَاءِ الْأَمْرِ بِسَلَامٍ: «هَذَا رَائِعٌ.»

هَزَّ ثورنتون رَأْسَهُ: «كَلَّا، إِنَّهُ أَمْرٌ جَيِّدٌ أَنَّهُ يَسْتَمِعُ إِلَيَّ، وَلَكِنَّهُ رَهِيبٌ أَيْضًا. أَحْيَانًا يُشْعِرُنِي بِالْخَوْفِ.»

قَالَ بيت وَهُوَ يُومِئُ بِرَأْسِهِ نَحْوَ باك: «لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مَكَانَ الرَّجُلِ الَّذِي يُؤْذِيكَ وَباك فِي الْأَرْجَاءِ. إِنَّهُ أَوْفَى وَأَشْرَسُ صَدِيقٍ يُمْكِنُ لِأَيِّ شَخْصٍ الْحُصُولُ عَلَيْهِ.»

تَدَخَّلَ هانز: «بِحَقِّ السَّمَاءِ! أَتَّفِقُ مَعَ بيت تَمَامًا. هَذَا الْكَلْبُ يُسَاوِي جَيْشًا، وَكَمْ أَشْعُرُ بِالشَّفَقَةِ تِجَاهَ مَنْ سَيَكْتَشِفُ ذَلِكَ بِالطَّرِيقَةِ الصَّعْبَةِ.»

وَوَقَعَتِ الْحَادِثَةُ فِي مَدِينَةِ سيركل، قَبْلَ نِهَايَةِ السَّنَةِ، عِنْدَمَا تَحَوَّلَتْ مَخَاوِفُ بيت إِلَى وَاقِعٍ. كَانَ بلاك بورتون رَجُلًا وَضِيعًا وَسَيِّئَ الطِّبَاعِ، وَكَانَ يَبْدَأُ الشِّجَارَ مَعَ وَافِدٍ جَدِيدٍ فِي الْفُنْدُقِ عِنْدَمَا تَدَخَّلَ ثورنتون لِفَصْلِهِمَا. كَانَ باك يَسْتَلْقِي فِي الرُّكْنِ كَعَادَتِهِ وَيَسْنِدُ رَأْسَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ وَهُوَ يُرَاقِبُ كُلَّ حَرَكَةٍ يَقُومُ بِهَا سَيِّدُهُ. وَبِدُونِ أَيِّ إِنْذَارٍ، ضَرَبَ بورتون ثورنتون بِقُوَّةٍ وَطَرَحَهُ أَرْضًا.

سَمِعَ النَّاسُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَاقِبُونَ مَا حَدَثَ صَوْتًا لَمْ يَكُنْ نُبَاحًا وَلَا عُوَاءً، بَلْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الزَّئِيرِ، وَشَاهَدُوا باك وَهُوَ يَنْطَلِقُ فِي الْهَوَاءِ وَيَنْقَضُّ عَلَى بورتون. انْدَفَعَ بورتون إِلَى الْخَلْفِ وَباك فَوْقَهُ، وَاضْطُرَّ الْحَاضِرُونَ إِلَى جَذْبِ باك بَعِيدًا، وَبَيْنَمَا كَانُوا يَفْحَصُونَ إِصَابَاتِ بورتون، كَانَ باك يَقْفِزُ وَيُزَمْجِرُ بِغَضَبٍ مُحَاوِلًا الِانْقِضَاضَ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنْ يَمْنَعُهُ نَحْوُ عَشَرَةِ رِجَالٍ.

وَأَخِيرًا تَمَكَّنَ بورتون مِنَ النُّهُوضِ عَلَى قَدَمَيْهِ وَهُوَ يَتَرَنَّحُ وَيَلْهَثُ وَقَالَ: «لَمْ أَرَ كَلْبًا مِثْلَ هَذَا مِنْ قَبْلُ، وَأَتَمَنَّى أَلَّا أَرَى مِثْلَهُ مُجَدَّدًا.» وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ شَاعَ اسْمُ باك فِي كُلِّ مُخَيَّمٍ فِي ألاسكا.

وَفِي وَقْتٍ لَاحِقٍ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ وَفِي فَصْلِ الْخَرِيفِ، أَنْقَذَ باك حَيَاةَ جون ثورنتون بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا. كَانَ الشُّرَكَاءُ الثَّلَاثَةُ يُحَاوِلُونَ تَحْرِيكَ قَارِبٍ صَغِيرٍ عَبْرَ الْمُنْحَدَرَاتِ فِي النَّهْرِ الَّذِي يَمْتَدُّ لِأَرْبَعِينَ مِيلًا. كَانَ هانز وَبيت عَلَى الْيَابِسَةِ يُمْسِكَانِ بِحَبْلٍ مَرْبُوطٍ

بِالْقَارِبِ. وَكَانَ ثورنتون عَلَى الْقَارِبِ، يُحَرِّكُهُ بِحَذَرٍ عَبْرَ النَّهْرِ وَيَصْرُخُ بِتَعْلِيمَاتِهِ لِلرِّجَالِ عَلَى الْيَابِسَةِ. وَكَانَ باك عَلَى الْيَابِسَةِ يُرَاقِبُ الْقَارِبَ بِقَلَقٍ.

وَفِي مِنْطَقَةٍ سَيِّئَةٍ، تَعَقَّدَ الْقَارِبُ وَالْحَبْلُ وَانْقَلَبَ الْقَارِبُ. وَانْجَرَفَ ثورنتون مَعَ التَّيَّارِ نَحْوَ أَسْوَأِ جُزْءٍ مِنَ الْمُنْحَدَرَاتِ.

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا، قَفَزَ باك إِلَى الْمَاءِ، وَفِي خِضَمِّ دَوَّامَةِ الْمِيَاهِ السَّرِيعَةِ تَمَكَّنَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِثورنتون. وَعِنْدَمَا شَعَرَ بِهِ وَهُوَ يُمْسِكُ بِذَيْلِهِ، اتَّجَهَ باك نَحْوَ الشَّاطِئِ، وَكَانَ يَسْبَحُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ وَكَانَتِ الْمُنْحَدَرَاتُ قَوِيَّةً. وَكَانَ ثورنتون يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ الْوُصُولُ إِلَى الشَّاطِئِ، فَحَاوَلَ التَّشَبُّثَ بِالصُّخُورِ وَأَخْفَقَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ تَمَكَّنَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِوَاحِدَةٍ، فَتَرَكَ باك وَصَاحَ بِصَوْتٍ أَعْلَى مِنْ هَدِيرِ الْمِيَاهِ: «اذْهَبْ يَا باك! اذْهَبْ!»

انْجَرَفَ باك أَكْثَرَ مَعَ التَّيَّارِ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى سَيِّدِهِ. وَعِنْدَمَا سَمِعَ سَيِّدَهُ يَأْمُرُهُ، اسْتَدَارَ وَاتَّجَهَ نَحْوَ الْيَابِسَةِ، فَسَبَحَ بِقُوَّةٍ وَسَحَبَهُ هانز وَبيت لِلشَّاطِئِ.

كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ ثورنتون لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِالصَّخْرَةِ طَوِيلًا، فَرَكَضُوا تِجَاهَ أَعْلَى النَّهْرِ بِسُرْعَةٍ، وَرَبَطُوا حَبْلًا إِلَى باك، ثُمَّ قَفَزَ فِي الْمَاءِ. سَبَحَ نَحْوَ ثورنتون وَلَكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي التَّصْوِيبِ وَسَحَبَهُ هانز مَرَّةً أُخْرَى لِلشَّاطِئِ. اسْتَلْقَى باك هُنَاكَ مُنْهَكًا مِنَ السِّبَاحَةِ فِي الْمُنْحَدَرَاتِ، وَلَكِنْ بِمُجَرَّدِ سَمَاعِ صَوْتِ ثورنتون، قَفَزَ وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ وَرَكَضَ بِجَانِبِ الشَّاطِئِ مَرَّةً أُخْرَى.

قَفَزَ فِي الْمِيَاهِ مُجَدَّدًا مَرْبُوطًا بِالْحَبْلِ، وَهَذِهِ الْمَرَّةَ كَانَ يَعْلَمُ كَيْفَ يَتَفَادَى ارْتِكَابَ الْخَطَأِ نَفْسِهِ. سَبَحَ حَتَّى سَحَبَهُ التَّيَّارُ نَحْوَ ثورنتون، الَّذِي وَضَعَ ذِرَاعَيْهِ حَوْلَ عُنُقِ باك الْأَشْعَثِ، ثُمَّ سَحَبَ هانز وَبيت الْحَبْلَ. انْدَفَعَ باك وَثورنتون تَحْتَ الْمِيَاهِ وَاصْطَدَمُوا بِالصُّخُورِ حَتَّى وَصَلُوا لِلشَّاطِئِ.

اسْتَعَادَ ثورنتون وَعْيَهُ أَوَّلًا عَلَى إِثْرِ هَزِّ جَسَدِهِ مِنْ قِبَلِ هانز وَبيت، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ فَعَلَهُ هُوَ الْبَحْثُ عَنْ باك. كَانَ فيج وَسكيت يَقِفُونَ بِجَانِبِ باك الَّذِي كَانَ يَسْتَلْقِي عَلَى الْأَرْضِ وَيَتَنَفَّسُ بِصُعُوبَةٍ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ إِصَابَتِهِ الشَّدِيدَةِ أَيْضًا، فَحَصَ ثورنتون جَسَدَ باك بِحِرْصٍ بَحْثًا عَنِ الْإِصَابَاتِ وَوَجَدَ أَنَّ باك لَدَيْهِ ثَلَاثَةُ ضُلُوعٍ مَكْسُورَةٍ.

قَالَ: «هَذَا يَحْسِمُ الْأَمْرَ، سَنُخَيِّمُ هُنَا.» وَبِالْفِعْلِ أَقَامُوا الْمُخَيَّمَ حَتَّى شُفِيَتْ ضُلُوعُ باك وَأَصْبَحَ بِإِمْكَانِهِ اسْتِئْنَافُ السَّفَرِ مُجَدَّدًا.

الفصل التاسع

الرِّهَانُ

فِي ذَلِكَ الشِّتَاءِ فِي داوسون قَامَ باك بِأَمْرٍ آخَرَ مُذْهِلٍ أَكْسَبَهُ مَزِيدًا مِنَ الشُّهْرَةِ. بَدَأَ الْأَمْرُ خِلَالَ مُحَادَثَةٍ فِي فُنْدُقِ إلدورادو، حَيْثُ كَانَ بَعْضُ الرِّجَالِ يَتَحَدَّثُونَ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ عَنْ كِلَابِهِمُ الْمُفَضَّلَةِ. كَانَ باك الْأَكْثَرَ شُهْرَةً وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ قَالُوا إِنَّهُ لَيْسَ رَائِعًا لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ، فَتَجَادَلَ ثورنتون مَعَهُمْ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ إِنَّ كَلْبَهُ يُمْكِنُهُ جَرُّ مِزْلَجَةٍ بِحُمُولَةِ خَمْسِمِائَةِ رَطْلٍ، وَقَالَ آخَرُ إِنَّ كَلْبَهُ يُمْكِنُهُ جَرُّ حُمُولَةِ سِتِّمِائَةِ رَطْلٍ، وَقَالَ رَجُلٌ ثَالِثٌ إِنَّ كَلْبَهُ يُمْكِنُهُ جَرُّ سَبْعِمِائَةِ رَطْلٍ.

قَالَ جون ثورنتون: «هَذَا لَا شَيْءَ. باك يُمْكِنُهُ جَرُّ مِزْلَجَةٍ بِحُمُولَةِ أَلْفِ رَطْلٍ.»

فَسَأَلَهُ ماثيوسن، وَالَّذِي كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ كَلْبَهُ يُمْكِنُهُ جَرُّ حُمُولَةِ سَبْعِمِائَةِ رَطْلٍ: «وَيُخْرِجُهَا مِنَ الْجَلِيدِ وَيَسِيرُ بِهَا مَسَافَةَ مِائَةِ يَارْدَةٍ؟»

فَأَجَابَهُ جون ثورنتون بِهُدُوءٍ: «وَيُخْرِجُهَا مِنَ الْجَلِيدِ وَيَسِيرُ بِهَا مَسَافَةَ مِائَةِ يَارْدَةٍ.»

قَالَ ماثيوسن بِبُطْءٍ وَتَأَنٍّ حَتَّى يَسْمَعَهُ الْجَمِيعُ: «حَسَنًا، أُرَاهِنُ بِأَلْفِ دُولَارٍ أَنَّهُ لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ. وَهَا هُوَ الْمَبْلَغُ.» وَقَامَ بِإِلْقَاءِ كِيسٍ مِنْ غُبَارِ الذَّهَبِ بِحَجْمِ النَّقَانِقِ عَلَى الْبَارِ.

لَمْ يَتَحَدَّثْ أَحَدٌ، وَشَعَرَ ثورنتون بِنَفْسِهِ وَهُوَ يَحْمَرُّ خَجَلًا، لَقَدْ تَهَوَّرَ فِي الْحَدِيثِ، فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَا إِذَا كَانَ بِإِمْكَانِ باك جَرُّ كُلِّ هَذِهِ الْحُمُولَةِ أَمْ لَا. أَلْفُ رَطْلٍ! جَعَلَهُ هَذَا الْحَجْمُ يَشْعُرُ بِالْغَثَيَانِ. لَقَدْ كَانَ وَاثِقًا فِي قُوَّةِ باك، وَفَكَّرَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ أَنَّ باك رُبَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ جَرِّ حُمُولَةٍ كَهَذِهِ. وَلَكِنِ الْآنَ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ. فَالْبَلْدَةُ بِأَكْمَلِهَا تَنْتَظِرُ وَتُرَاقِبُ. وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ ثورنتون لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ أَلْفَ دُولَارٍ وَلَا حَتَّى هانز أَوْ بيت.

أَكْمَلَ ماثيوسن بِخُبْثٍ: «لَدَيَّ فِي الْخَارِجِ مِزْلَجَةٌ تَحْمِلُ عِشْرِينَ كِيسًا مِنَ الدَّقِيقِ، يَزِنُ كُلُّ كِيسٍ خَمْسِينَ رَطْلًا. هَا هِيَ حُمُولَةُ الْأَلْفِ رَطْلٍ. وَهَكَذَا يُمْكِنُنَا الذَّهَابُ الْآنَ.»

لَمْ يُجِبْ ثورنتون، فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَاذَا يَقُولُ، وَأَدَارَ عَيْنَيْهِ فِي الْوُجُوهِ مِنْ وَجْهٍ لِوَجْهٍ وَرَأَى صَدِيقًا قَدِيمًا يُدْعَى جيم أوبراين.

سَأَلَهُ ثورنتون هَامِسًا: «هَلْ يُمْكِنُكَ إِقْرَاضِي أَلْفَ دُولَارٍ؟»

أَجَابَهُ أوبراين: «بِالطَّبْعِ. أَنَا أَضَعُ ثِقَتِي بِكَ يَا جون، وَأَثِقُ أَنَّ هَذَا الْوَحْشَ يُمْكِنُهُ الْقِيَامُ بِالْأَمْرِ.» وَأَلْقَى بِكِيسٍ مِنَ النُّقُودِ إِلَى جَانِبِ كِيسِ ماثيوسن.

قَالَ ثورنتون: «لَا تَقْلَقْ، هَذَا الْكَلْبُ يُمْكِنُهُ الْقِيَامُ بِالْمُعْجِزَاتِ. فَقَدْ أَنْقَذَ حَيَاتِي ذَاتَ مَرَّةٍ.»

«وَسَيَفْعَلُهَا مُجَدَّدًا.» هَكَذَا قَالَ بيت وَهُوَ يَتَذَكَّرُ الْمَرَّةَ الَّتِي كَادَ باك أَنْ يَقْفِزَ مِنْ عَلَى الْجُرُفِ بِنَاءً عَلَى أَمْرٍ مِنْ ثورنتون. وَأَضَافَ: «لَمْ أَرَ قَطُّ كَلْبًا مُخْلِصًا وَمُتَفَانِيًا لِسَيِّدِهِ بِهَذَا الشَّكْلِ. فَإِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ باك مِنَ الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ، فَلَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ.»

أَوْمَأَ أوبراين بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا وَقَالَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى باك: «لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْهُ وَعَمَّا يُمْكِنُهُ الْقِيَامُ بِهِ. أَعْلَمُ أَنَّهَا مُخَاطَرَةٌ وَلَكِنِّي مُسْتَعِدٌّ لِتَقَبُّلِهَا. إِنَّ ماثيوسن كَثِيرُ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ باك هُوَ كَلْبُ الْمَهَامِّ الصَّعْبَةِ.»

خَرَجَ الْجَمِيعُ مِنْ فُنْدُقِ إلدورادو وَوَقَفُوا فِي الشَّارِعِ فِي الْخَارِجِ، وَقَفَ عِدَّةُ مِئَاتٍ مِنَ الرِّجَالِ مُرْتَدِينَ الْفَرْوَ وَالْقُفَّازَاتِ حَوْلَ مِزْلَجَةِ ماثيوسن. كَانَتْ مُحَمَّلَةً بِأَلْفِ رَطْلٍ مِنَ الدَّقِيقِ، وَوَاقِفَةً فِي مَكَانِهَا لِعِدَّةِ سَاعَاتٍ. وَفِي ذَلِكَ الطَّقْسِ الْبَارِدِ، تَجَمَّدَتِ الْمِزْلَجَةُ فِي الْجَلِيدِ الصُّلْبِ، وَكَانَ مُعْظَمُ الرِّجَالِ يُرَاهِنُونَ أَنَّ باك لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ زَحْزَحَةِ الْمِزْلَجَةِ مِنْ مَكَانِهَا.

حَتَّى جون ثورنتون شَعَرَ بِالسُّوءِ لِتَسَرُّعِهِ بِقَبُولِ الرِّهَانِ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَةِ الْمِزْلَجَةِ مَعَ فَرِيقِهَا الْأَصْلِيِّ الْمُكَوَّنِ مِنْ عَشَرَةِ كِلَابٍ يَسْتَلْقُونَ عَلَى الْجَلِيدِ أَمَامَهَا. بَدَتْ مَهَمَّةُ باك مُسْتَحِيلَةً، وَلَكِنَّ ماثيوسن كَانَ سَعِيدًا.

فَصَاحَ قَائِلًا: «ثَلَاثَةٌ إِلَى وَاحِدٍ! سَأُرَاهِنُكَ بِأَلْفِ دُولَارٍ أُخْرَى عَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ، مَا رَأْيُكَ؟»

بَدَا ثورنتون قَلِقًا، وَلَكِنَّ الرِّهَانَ أَثَارَ رُوحَ الْقِتَالِ بِدَاخِلِهِ. فَنَادَى هانز وَبيت، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَى الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ مُجْتَمِعِينَ سِوَى مِائَتَيْ دُولَارٍ فَقَطْ. كَانَ ذَلِكَ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَهُ، وَقَدْ رَاهَنُوا بِالْمَبْلَغِ كُلِّهِ.

تَمَّ تَحْرِيرُ الْكِلَابِ الْعَشَرَةِ مِنَ الْمِزْلَجَةِ، وَتَمَّ رَبْطُ باك بِسَرْجِهِ الْخَاصِّ بِالْمِزْلَجَةِ. كَانَ قَدْ شَعَرَ بِالْحَمَاسَةِ الْمُتَدَفِّقَةِ حَوْلَهُ، وَعَلِمَ بِطَرِيقَةٍ مَا أَنَّ عَلَيْهِ الْقِيَامَ بِشَيْءٍ رَائِعٍ مِنْ أَجْلِ جون ثورنتون. تَحَدَّثَ الْجَمْعُ عَنْ مَنْظَرِ باك الرَّائِعِ. فَقَدْ كَانَ فِي هَيْئَةٍ مُمْتَازَةٍ، يَزِنُ مِائَةً وَخَمْسِينَ رَطْلًا مِنَ الْقُوَّةِ الْخَالِصَةِ وَفَرْوَتُهُ تَلْمَعُ كَالْحَرِيرِ، تَحَسَّسَ الرِّجَالُ عَضَلَاتِهِ وَقَالُوا إِنَّهَا صُلْبَةٌ كَالْحَدِيدِ، وَانْخَفَضَتْ الاحْتِمَالَاتُ إِلَى اثْنَيْنِ إِلَى وَاحِدٍ.

هَتَفَ شَخْصٌ مِنَ الْجَمْعِ: «بِحَقِّ السَّمَاءِ يَا سَيِّدِي! سَأَدْفَعُ لَكَ ثَمَانِمِائَةِ دُولَارٍ فِي مُقَابِلِهِ، قَبْلَ اخْتِبَارِ الْقُوَّةِ. ثَمَانِمِائَةِ دُولَارٍ مُقَابِلَهُ الْآنَ.»

هَزَّ ثورنتون رَأْسَهُ وَوَقَفَ بِجَانِبِ باك.

قَالَ ماثيوسن: «يَجِبُ أَنْ تَبْقَى بَعِيدًا عَنْهُ وَهُوَ يَشُدُّ. أَعْطِهِ مَسَاحَةً جَيِّدَةً.»

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْجُمُوعِ، وَقَدْ وَافَقُوا جَمِيعًا عَلَى أَنَّ باك حَيَوَانٌ رَائِعٌ، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ حُمُولَةَ أَلْفِ رَطْلٍ أَضْخَمُ مِنْ أَنْ يَجُرَّهَا كَلْبٌ وَاحِدٌ، وَلَمْ يُرَاهِنْ أَحَدٌ آخَرُ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْقِيَامِ بِالْمَهَمَّةِ.

جَثَا ثورنتون عَلَى رُكْبَتَيْهِ بِجَانِبِ باك، وَأَخَذَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَرَاحَ خَدَّهُ عَلَى خَدِّ باك. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهُزَّ رَأْسَهُ بِمَرَحٍ أَوْ يَدْعُهُ بِأَلْقَابٍ سَيِّئَةٍ كَمَا كَانَ يَتَمَنَّى باك، بَلْ هَمَسَ فِي أُذُنِهِ.

هَمَسَ قَائِلًا: «بِقَدْرِ مَا تُحِبُّنِي يَا باك. بِقَدْرِ مَا تُحِبُّنِي.» أَطْلَقَ باك عُوَاءً بِحَمَاسَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْ كَبْتَهَا.

كَانَ الْجَمْعُ يُرَاقِبُ مَا يَحْدُثُ بِفُضُولٍ، بَدَا الْأَمْرُ وَكَأَنَّ شَيْئًا سِحْرِيًّا يَحْدُثُ. فَعِنْدَمَا وَقَفَ ثورنتون، أَخَذَ باك يَدَهُ بَيْنَ فَكَّيْهِ وَهُوَ يَضْغَطُ بِأَسْنَانِهِ عَلَيْهَا وَيَتْرُكُهَا بِبُطْءٍ؛ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ إِجَابَتُهُ، وَهُوَ يُظْهِرُ مَدَى حُبِّهِ لِهَذَا الرَّجُلِ. تَرَاجَعَ ثورنتون لِلْخَلْفِ وَقَالَ: «الْآنَ يَا باك.»

شَدَّ باك السَّرْجَ وَتَرَكَهُ يَرْتَخِي عِدَّةَ بُوصَاتٍ، كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي تَعَلَّمَهَا.

صَرَخَ ثورنتون: «إِلَى الْيَمِينِ.»

مَالَ باك إِلَى الْيَمِينِ وَهُوَ يَشُدُّ السَّرْجَ بِحَرَكَةٍ مُفَاجِئَةٍ، اهْتَزَّتْ الْمِزْلَجَةُ وَكَانَ هُنَاكَ صَوْتُ طَقْطَقَةِ الْجَلِيدِ.

صَرَخَ ثورنتون بِلَهْجَةٍ آمِرَةٍ: «إِلَى الْيَسَارِ.»

قَفَزَ باك مُجَدَّدًا وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ نَاحِيَةَ الْيَسَارِ، تَحَوَّلَ صَوْتُ الطَّقْطَقَةِ إِلَى صَوْتِ تَهَشُّمٍ، وَتَحَرَّكَتِ الْمِزْلَجَةُ لِبِضْعَةِ بُوصَاتٍ إِلَى الْجَانِبِ. كَانَتِ الْمِزْلَجَةُ قَدْ تَحَرَّرَتْ مِنَ الْجَلِيدِ. كَانَ الرِّجَالُ يَحْبِسُونَ أَنْفَاسَهُمْ دُونَ أَنْ يُدْرِكُوا ذَلِكَ.

– «وَالْآنَ، انْطَلِقْ!»

انْطَلَقَ أَمْرُ ثورنتون كَطَلْقَةِ الرَّصَاصِ، فَدَفَعَ باك بِنَفْسِهِ إِلَى الْأَمَامِ وَهُوَ يَشُدُّ أَحْزِمَةَ السَّرْجِ، اهْتَزَّ جَسَدُهُ كُلُّهُ مِنَ الْمَجْهُودِ وَكَانَتْ عَضَلَاتُهُ تَشْتَدُّ تَحْتَ فَرْوِهِ الْحَرِيرِيِّ، وَكَانَ صَدْرُهُ الْقَوِيُّ بِالْقُرْبِ مِنَ الْأَرْضِ، وَرَأْسُهُ لِلْأَسْفَلِ وَمَمْدُودًا إِلَى الْأَمَامِ، بَيْنَمَا كَانَتْ أَقْدَامُهُ تَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ وَتَخْدِشُ مَخَالِبُهُ الْجَلِيدَ الصُّلْبَ. اهْتَزَّتِ الْمِزْلَجَةُ وَتَحَرَّكَتْ لِلْأَمَامِ خُطْوَةً صَغِيرَةً، وَتَعَثَّرَتْ أَحَدُ أَقْدَامِ باك فَأَطْلَقَ أَحَدُ الرِّجَالِ الْوَاقِفِينَ صَرْخَةَ تَأَوُّهٍ. ثُمَّ مَالَتِ الْمِزْلَجَةُ إِلَى الْأَمَامِ فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الِاهْتِزَازَاتِ وَلَمْ تَتَوَقَّفْ مُجَدَّدًا. نِصْفُ بُوصَةٍ، بُوصَةٌ، بُوصَتَانِ. تَوَقَّفَتْ الِاهْتِزَازَاتُ وَسُرْعَةُ الْمِزْلَجَةِ تَزْدَادُ حَتَّى أَصْبَحَتْ تَتَحَرَّكُ بِثَبَاتٍ.

لَهَثَ الرِّجَالُ مِنْ فَرْطِ دَهْشَتِهِمْ، وَبَدَءُوا يَلْتَقِطُونَ أَنْفَاسَهُمْ مُجَدَّدًا. كَانَ ثورنتون يَرْكُضُ خَلْفَ الْمِزْلَجَةِ وَهُوَ يُشَجِّعُ باك. كَانَتْ مَسَافَةُ الرِّهَانِ مُحَدَّدَةً بِكَوْمَةٍ مِنَ الْأَخْشَابِ، وَبَدَأَتْ صَيْحَاتُ التَّشْجِيعِ تَتَعَالَى وَتَحَوَّلَتْ إِلَى صِيَاحٍ عِنْدَمَا اجْتَازَ باك كَوْمَةَ الْخَشَبِ وَتَوَقَّفَ عِنْدَ أَمْرِ ثورنتون. أَلْقَى الرِّجَالُ بِقُبَّعَاتِهِمْ وَقُفَّازَاتِهِمْ فِي الْهَوَاءِ، حَتَّى ماثيوسن، وَتَصَافَحُوا وَهُمْ يَضْحَكُونَ.

وَلَكِنَّ ثورنتون كَانَ جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ بِجَانِبِ باك، وَكَانَتْ رَأْسَاهُمَا تَتَلَامَسَانِ، وَكَانَ ثورنتون يَهُزُّهُ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ، وَسَمِعَهُ الرِّجَالُ الَّذِينَ أَسْرَعُوا إِلَيْهِمَا وَهُوَ يَنْعَتُ باك بِبَعْضِ الْأَلْقَابِ السَّيِّئَةِ فِي صَوْتٍ حَنُونٍ مُحِبٍّ.

غَمْغَمَ الرَّجُلُ الَّذِي عَرَضَ شِرَاءَ باك: «بِحَقِّ السَّمَاءِ يَا سَيِّدِي! يَا سَيِّدِي! سَأُعْطِيكَ أَلْفَ دُولَارٍ فِي مُقَابِلِهِ يَا سَيِّدِي. أَلْفَ دُولَارٍ. بَلْ أَلْفًا وَمِائَتَيْنِ.»

وَقَفَ ثورنتون فِي صَمْتٍ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ مُغْرَوْرِقَتَانِ بِالدُّمُوعِ الَّتِي تَنْهَمِرُ عَلَى وَجْهِهِ.

فَصَاحَ الرَّجُلُ: «أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ إِذَنْ.»

قَالَ ثورنتون عِنْدَمَا شَعَرَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْحَدِيثِ: «كَلَّا يَا سَيِّدِي. وَلَا حَتَّى فِي مُقَابِلِ كُلِّ الذَّهَبِ فِي ألاسكا.»

جَذَبَ باك يَدَ ثورنتون مَرَّةً أُخْرَى بَيْنَ أَسْنَانِهِ، بَيْنَمَا كَانَ ثورنتون يَهُزُّ رَأْسَهُ لِلْأَمَامِ وَالْخَلْفِ. ابْتَعَدَ الْجَمْعُ عَنْهُمَا وَلَمْ يُقَاطِعْهُمَا أَحَدٌ مَرَّةً أُخْرَى.

بِفَوْزِ باك بِالرِّهَانِ، جُمِعَ أَلْفٌ وَسِتُّمِائَةِ دُولَارٍ مِنْ أَجْلِ جون ثورنتون فِي خَمْسِ دَقَائِقَ. هَذَا الْمَالُ سَاعَدَ ثورنتون عَلَى سَدَادِ دُيُونِهِ وَالسَّفَرِ مَعَ شُرَكَائِهِ إِلَى الشَّرْقِ سَعْيًا وَرَاءَ مَنْجَمٍ مَشْهُورٍ مَفْقُودٍ. وَقَدْ بَحَثَ عَنْهُ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْقِصَصِ حَوْلَهُ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مَنِ اكْتَشَفَهُ أَوَّلًا.

كَانَ هُنَاكَ حَدِيثٌ عَنْ كُوخٍ قَدِيمٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَنْجَمِ. كَانَت هُنَاكَ قِطَعٌ مِنَ الذَّهَبِ يَقُولُ أُنَاسٌ إِنَّهَا استُخْرِجَتْ مِنْ هُنَاكَ، وَإِنَّهَا تَخْتَلِفُ عَنِ الذَّهَبِ الْمَوْجُودِ فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ فِي الشَّمَالِ.

اصْطَحَبَ جون ثورنتون وَبيت وَهانز باك مَعَهُمْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ كَلْبًا آخَرَ وَاتَّجَهُوا شَرْقًا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِلْبَحْثِ عَنِ الْمَنْجَمِ الْمَفْقُودِ. سَافَرُوا مَسَافَةَ سَبْعِينَ مِيلًا بِاتِّجَاهِ مَنْبَعِ نَهْرِ يوكون، وَاتَّجَهُوا لِلْيَسَارِ إِلَى نَهْرِ ستيوارت، وَمَرُّوا بِنَهْرَيْ مايو وَماكويستن، وَاسْتَمَرُّوا فِي مَسِيرَتِهِمْ حَتَّى أَصْبَحَ نَهْرُ ستيوارت مُجَرَّدَ جَدْوَلٍ صَغِيرٍ فِي الْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ.

لَمْ يَكُنْ جون ثورنتون يَحْتَاجُ لِلْكَثِيرِ مِنْ أَجْلِ الْعَيْشِ، وَلَم يَكُنْ يَخَافُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ. فَبِحَفْنَةٍ مِنَ الْمِلْحِ وَبُنْدُقِيَّةٍ، يُمْكِنُهُ الْغَوْصُ فِي أَعْمَاقِ الْبَرِّيَّةِ وَالْعَيْشُ لِأَيِّ مُدَّةٍ يُرِيدُهَا. لَمْ يَكُنْ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَكَانَ يَصْطَادُ كَالسُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ وَهُوَ مُسَافِرٌ. وَإِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِن اصْطِيَادِ عَشَائِهِ، عِنْدَئِذٍ كَانَ يَسْتَمِرُّ فِي السَّفَرِ مِثْلَ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ، مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا سَيَصْطَادُ شَيْئًا.

وَمِنْ ثَمَّ، خِلَالَ تِلْكَ الرِّحْلَةِ نَحْوَ الشَّرْقِ، تَنَاوَلَ الرِّجَالُ وَالْكِلَابُ اللَّحْمَ بِانْتِظَامٍ. وَكَانَتِ الْمِزْلَجَةُ مُحَمَّلَةً بِالذَّخِيرَةِ وَالْأَدَوَاتِ، وَكَانُوا يُسَافِرُونَ فِي تَمَهُّلٍ.

أَحَبَّ باك تِلْكَ الرِّحْلَةَ مِنَ الصَّيْدِ وَصَيْدِ الْأَسْمَاكِ وَالتَّجَوُّلِ فِي الْأَمَاكِنِ الْغَرِيبَةِ. وَعَلَى مَدَارِ أَسَابِيعَ، كَانُوا يُخَيِّمُونَ هُنَا وَهُنَاكَ، تَتَكَاسَلُ الْكِلَابُ وَيُحْرِقُ الرِّجَالُ الثُّقُوبَ فِي الْجَلِيدِ وَالْحَصَى، وَيَفْصِلُونَ الذَّهَبَ مِنَ الْحَصَى بِحَرَارَةِ النَّارِ، يَجُوعُونَ أَحْيَانًا، وَيَأْكُلُونَ حَتَّى الشَّبَعِ فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى. وَجَاءَ فَصْلُ الصَّيْفِ، وَكَانَ الْكِلَابُ وَالرِّجَالُ يَحْمِلُونَ الْحَقَائِبَ عَلَى ظُهُورِهِمْ، وَيَرْكَبُونَ الْأَطْوَافَ عَبْرَ بُحَيْرَاتِ الْجِبَالِ، وَيُسَافِرُونَ عَبْرَ الْأَنْهَارِ فِي مَرَاكِبَ صَغِيرَةٍ يَصْنَعُونَهَا مِنَ الْأَشْجَارِ فِي الْغَابَةِ.

مَرَّتْ شُهُورٌ عَدِيدَةٌ، وَهُمْ يَسْلُكُونَ طُرُقًا كَثِيرَةً عَبْرَ أَرَاضٍ مَهْجُورَةٍ، وَكَانُوا يَتَجَوَّلُونَ فِي الطُّرُقِ الْقَدِيمَةِ فِي الشِّتَاءِ، وَأَخِيرًا فِي الرَّبِيعِ وَجَدُوا شَيْئًا. لَمْ يَكُنِ الْمَنْجَمُ الْمَفْقُودُ وَلَا الكُوخُ الْمَفْقُودُ وَإِنَّمَا نَهْرٌ ضَحْلٌ فِي وَادٍ عَمِيقٍ، وَكَانَتْ صُخُورُ النَّهْرِ مَلِيئَةً بِالذَّهَبِ. تَوَقَّفَ الْفَرِيقُ عَنِ الْبَحْثِ وَاسْتَقَرَّ هُنَاكَ. كُلَّ يَوْمٍ كَانُوا يَجِدُونَ مَا يُسَاوِي آلَافَ الدُّولَارَاتِ مِنْ قِطَعِ الذَّهَبِ وَغُبَارِهِ. وَضَعُوا الذَّهَبَ فِي أَكْيَاسٍ، خَمْسُونَ رَطْلًا فِي كُلِّ كِيسٍ، وَوَضَعُوهَا فِي كَوْمَةٍ مِثْلِ الْخَشَبِ خَارِجَ الكُوخِ الصَّغِيرِ الذي بَنَوْه.

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ تَفْعَلُهُ الْكِلَابُ سِوَى سَحْبِ الْغَنَائِمِ الَّتِي يَصْطَادُهَا ثورنتون. لِذَا قَضَى باك سَاعَاتٍ كَثِيرَةً حَالِمًا بِجَانِبِ النَّارِ؛ كَانَ يَحْلُمُ أَنَّهُ يَسْمَعُ شَيْئًا يُنَادِيهِ مِنَ الْغَابَةِ، وَكَانَ يَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ، وَكَانَ يُرِيدُ فِعْلَ شَيْءٍ ذِي أَهَمِّيَّةٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَاهِيَّتَهُ. فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَ يُطَارِدُ هَذَا الصَّوْتَ عَبْرَ الْغَابَةِ بَحْثًا عَمَّا إِذَا كَانَ صَوْتَ حَيَوَانٍ. كَانَ يَدْفَعُ بِأَنْفِهِ وَيُشَمْشِمُ فِي الْعُشْبِ الْبَارِدِ أَوِ التُّرْبَةِ السَّوْدَاءِ حَيْثُ يَنْبُتُ الْعُشْبُ الطَّوِيلُ، أَوْ يَرْبِضُ لِسَاعَاتٍ مُخْتَبِئًا خَلْفَ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ الْمُتَسَاقِطَةِ، يُرَاقِبُ وَيَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ يَتَحَرَّكُ أَوْ يُصْدِرُ صَوْتًا بِالْقُرْبِ مِنْهُ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ لِمَاذَا يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ عَلَيْهِ الْقِيَامَ بِهَا وَلَمْ يَسْأَلْ نَفْسَهُ لِمَاذَا.

أَحْيَانًا يَكُونُ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمُخَيَّمِ، نَائِمًا فِي الْجَوِّ الْحَارِّ، وَفَجْأَةً يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَكَأَنَّهُ سَمِعَ شَيْئًا، ثُمَّ يَهُبُّ وَاقِفًا عَلَى أَقْدَامِهِ وَيَنْدَفِعُ مُبْتَعِدًا. وَكَانَ يَرْكُضُ لِسَاعَاتٍ عَبْرَ الْغَابَةِ وَالْمِسَاحَاتِ الْمَفْتُوحَةِ، وَيَسْتَلْقِي فَوْقَ الشُّجَيْرَاتِ لِأَيَّامٍ حَيْثُ يُرَاقِبُ الطُّيُورَ، كَمَا كَانَ يُحِبُّ الرَّكْضَ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ فِي الصَّيْفِ. لَقَدْ كَانَ باك يَبْحَثُ دَائِمًا عَنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْغَامِضِ الَّذِي يُنَادِيهِ.

الفصل العاشر

نِدَاءُ الْبَرِّيَّةِ

ذَاتَ لَيْلَةٍ اسْتَيْقَظَ باك فَجْأَةً وَأَخَذَ يَتَشَمَّمُ الْهَوَاءَ وَانْتَصَبَ شَعْرُ جَسَدِهِ؛ فَقَدْ جَاءَهُ ذَلِكَ النِّدَاءُ مِنَ الْغَابَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُخْتَلِفًا هَذِهِ الْمَرَّةَ. كَانَ عُوَاءً طَوِيلًا، فَانْدَفَعَ باك عَبْرَ الْمُخَيَّمِ حَيْثُ كَانَ الْجَمِيعُ نَائِمِينَ، وَرَكَضَ عَبْرَ الْغَابَةِ. وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ مِنَ الصَّوْتِ، أَخَذَ يَتَقَدَّمُ بِبُطْءٍ وَحِرْصٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ مَفْتُوحٍ بَيْنَ الْأَشْجَارِ. وَهُنَاكَ رَأَى باك ذِئْبًا طَوِيلًا مَمْشُوقَ الْقَوَامِ مِنْ ذِئَابِ الْغَابَاتِ يَجْلِسُ عَلَى سَاقَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ وَيُصَوِّبُ أَنْفَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ.

لَمْ يُصْدِرْ باك أَيَّ صَوْتٍ، وَلَكِنَّ الذِّئْبَ تَوَقَّفَ عَنِ الْعُوَاءِ وَنَظَرَ حَوْلَهُ، فَخَرَجَ باك إِلَى الْمِنْطَقَةِ الْمَفْتُوحَةِ، وَجَسَدُهُ مُنْتَصِبٌ وَمُسْتَعِدٌّ لِلِانْقِضَاضِ وَذَيْلُهُ مُنْتَصِبٌ وَصُلْبٌ. أَرَادَ باك أَنْ يُظْهِرَ أَنَّهُ وَدُودٌ وَلَكِنَّ الذِّئْبَ رَكَضَ بَعِيدًا. رَكَضَ باك خَلْفَهُ وَلَحِقَ بِهِ بِسُهُولَةٍ، فَاسْتَدَارَ الذِّئْبُ وَاسْتَعَدَّ لِلْقِتَالِ.

لَمْ يُهَاجِمْ باك، وَلَكِنْ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ أَخَذَ يَدُورُ حَوْلَ الذِّئْبِ مُحَاوِلًا أَنْ يَبْدُوَ وَدُودًا، وَلَكِنَّ الذِّئْبَ كَانَ مُرْتَابًا وَخَائِفًا؛ فَقَدْ كَانَ باك أَكْبَرَ حَجْمًا مِنَ الذِّئْبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَلَى الْأَقَلِّ، فَكَانَتْ رَأْسُ الذِّئْبِ بِالْكَادِ تَصِلُ إِلَى كَتِفِ باك. وَمَرَّةً أُخْرَى، عِنْدَمَا وَجَدَ الذِّئْبُ فُرْصَةً رَكَضَ بَعِيدًا فَطَارَدَهُ باك الَّذِي كَانَ يَلْحَقُ بِهِ دَائِمًا، ثُمَّ حَاوَلَ الذِّئْبُ الْهُرُوبَ مُجَدَّدًا حَتَّى شَعَرَ بِالتَّعَبِ.

فِي النِّهَايَةِ حَصَلَ باك عَلَى مَا أَرَادَهُ، فَعِنْدَمَا وَجَدَ الذِّئْبُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي خَطَرٍ، أَخِيرًا أَخَذَ يَتَشَمَّمُ أَنْفَ باك. أَصْبَحَ الِاثْنَانِ عَلَى وِفَاقٍ وَبَدَآ فِي اللَّعِبِ مَعًا وَلَكِنْ بِبَعْضِ التَّوَتُّرِ

وَالْإِحْرَاجِ. وَبَعْدَ مُرُورِ بَعْضِ الْوَقْتِ، بَدَأَ الذِّئْبُ فِي الرَّكْضِ بِسُرْعَةٍ خَفِيفَةٍ، وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتْبَعَهُ باك، وَرَكَضَا مَعًا عَبْرَ اللَّيْلِ نَحْوَ الْجِبَالِ.

ظَلُّوا يَرْكُضُونَ لِأَيَّامٍ، غَمَرَتْ فِيهَا السَّعَادَةُ باك الَّذِي شَعَرَ أَنَّهُ يُلَبِّي ذَلِكَ النِّدَاءَ أَخِيرًا وَهُوَ يَرْكُضُ بِجَانِبِ صَدِيقِهِ الَّذِي كَانَ بِمَثَابَةِ أَخٍ بِالنِّسْبَةِ لَهُ. تَوَقَّفَا بِجَانِبِ جَدْوَلِ مِيَاهٍ لِيَشْرَبَا، ثُمَّ تَذَكَّرَ باك جون ثورنتون فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ. بَدَأَ الذِّئْبُ فِي التَّحَرُّكِ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَتَشَمَّمُ أَنْفَهُ مُحَاوِلًا تَحْفِيزَهُ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ. وَلَكِنَّ باك اسْتَدَارَ وَبَدَأَ فِي الْعَوْدَةِ بِبُطْءٍ، وَلِمُدَّةِ سَاعَةٍ رَكَضَ الذِّئْبُ بِجَانِبِهِ وَهُوَ يَنْتَحِبُ بِرِفْقٍ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ وَرَفَعَ أَنْفَهُ تِجَاهَ السَّمَاءِ وَأَطْلَقَ عُوَاءً حَزِينًا، وَبَيْنَمَا اسْتَمَرَّ باك فِي التَّقَدُّمِ، سَمِعَ الْعُوَاءَ يَخْبُو حَتَّى اخْتَفَى مَعَ بُعْدِ الْمَسَافَةِ.

كَانَ جون ثورنتون يَتَنَاوَلُ الْعَشَاءَ عِنْدَمَا رَكَضَ باك إِلَى الْمُخَيَّمِ وَقَفَزَ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ يَلْعَقُ وَجْهَهُ وَيَعَضُّ يَدَهُ بِحُبٍّ، بَيْنَمَا يَهُزُّهُ جون ثورنتون لِلْأَمَامِ وَالْخَلْفِ وَهُوَ يَنْعَتُهُ بِأَلْقَابٍ سَيِّئَةٍ.

لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ بِلَيْلَتَيْهِمَا لَمْ يَتْرُكْ باك الْمُخَيَّمَ وَلَمْ يَتْرُكْ جون ثورنتون يَغِيبُ عَنْ نَاظِرَيْهِ، فَقَدْ كَانَ يَتْبَعُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. كَانَ يُرَاقِبُهُ وَهُوَ يَأْكُلُ وَيَتْبَعُهُ حَتَّى يَنَامَ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَنْتَظِرُهُ حِينَ يَسْتَيْقِظُ فِي الصَّبَاحِ، وَلَكِنْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ بَدَأَ باك يَشْعُرُ بِالنِّدَاءِ الْعَجِيبِ مِنَ الْغَابَةِ أَقْوَى مِنْ ذِي قَبْلُ، وَعَادَ إِلَيْهِ قَلَقُهُ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ التَّوَقُّفِ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي الذِّئْبِ وَفِي رِحْلَتِهِمَا مَعًا عَبْرَ الْغَابَةِ، فَعَادَ يَتَجَوَّلُ فِي الْغَابَةِ وَلَكِنَّ الذِّئْبَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ.

بَدَأَ يَخْرُجُ لَيْلًا وَيَبْقَى بَعِيدًا عَنِ الْمُخَيَّمِ لِأَيَّامٍ فِي الْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، عَبَرَ الْجَبَلَ وَتَجَوَّلَ لِمُدَّةِ أُسْبُوعٍ بَحْثًا عَنِ الذِّئْبِ، وَكَانَ يَصْطَادُ وَيَأْكُلُ أَثْنَاءَ سَفَرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ قَطُّ، فَقَدِ اصْطَادَ أَسْمَاكَ السَّلْمُونِ مِنْ جَدْوَلٍ صَغِيرٍ، وَفَازَ بِقِتَالٍ ضِدَّ دُبٍّ أَسْوَدَ ضَخْمٍ؛ كَانَتْ مَعْرَكَةً شَرِسَةً وَقَدْ شَعَرَ باك وَكَأَنَّهُ مُقَاتِلٌ مُجَدَّدًا، وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ طَارَدَ حَيَوَانَاتِ الولفرين وَأَمْسَكَ اثْنَيْنِ مِنْهَا.

كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ أَفْضَلُ صَيَّادٍ فِي الْعَالَمِ، وَأَقْوَى حَيَوَانٍ. كَانَ فَخُورًا بِنَفْسِهِ وَقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ فِي مِشْيَتِهِ. وَفِيمَا عَدَا اللَّوْنِ الْبُنِّيِّ عَلَى أَنْفِهِ وَفَوْقَ عَيْنَيْهِ وَالشَّعْرِ الْأَبْيَضِ عَلَى صَدْرِهِ، بَدَا وَكَأَنَّهُ ذِئْبٌ ضَخْمٌ، أَضْخَمُ مِنْ أَضْخَمِ ذِئْبٍ فِي الْعَالَمِ. كَانَ وَالِدُ باك مِنْ فَصِيلَةِ

سان برنارد، لِذَا وَرِثَ باك حَجْمَهُ وَوَزْنَهُ مِنْهُ، بَيْنَمَا وَرِثَ مِنْ أُمِّهِ — وَالَّتِي كَانَتْ مِنْ فَصِيلَةِ الراعي — هَيْئَتَهَا. كَانَ أَنْفُهُ طَوِيلًا كَالذِّئَابِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ أَكْبَرَ مِنْ أَنْفِ أَيِّ ذِئْبٍ، وَكَانَتْ رَأْسُهُ تُشْبِهُ رَأْسَ الذِّئْبِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ أَكْبَرَ بِثَلَاثَةِ أَضْعَافٍ.

كَانَ مَاكِرًا كَالذِّئْبِ، وَذَكِيًّا كَكِلَابِ فَصِيلَتَيْ سان برنارد والراعي. هَذَا — بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْخِبْرَةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا فِي الشَّمَالِ — جَعَلَهُ فِي قُوَّةِ أَيِّ حَيَوَانٍ مَوْجُودٍ فِي الْبَرِّيَّةِ، فَكَانَ يُمْكِنُهُ الِاسْتِجَابَةُ لِلْأَصْوَاتِ وَالْحَرَكَاتِ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ، وَيُمْكِنُهُ الْوَثْبُ بِضِعْفِ سُرْعَةِ كِلَابِ الهاسكي. وَكَانَ يُمْكِنُهُ رُؤْيَةُ التَّحَرُّكَاتِ وَسَمَاعُ الْأَصْوَاتِ وَالِاسْتِجَابَةُ فِي وَقْتٍ أَقَلَّ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي يَحْتَاجُهُ أَيُّ كَلْبٍ لِرُؤْيَةِ أَوْ سَمَاعِ أَيِّ شَيْءٍ. كَانَتْ عَضَلَاتُهُ قَوِيَّةً وَتَتَحَرَّكُ وَتَنْبِضُ كَالْفُولَاذِ.

«لَمْ يُخْلَقْ كَلْبٌ مِثْلُهُ مِنْ قَبْلُ.» هَكَذَا وَصَفَهُ جون ثورنتون فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ بَيْنَمَا كَانَ يُرَاقِبُهُ هُوَ وَشُرَكَاؤُهُ وَهُوَ يَخْرُجُ مِنَ الْمُخَيَّمِ.

وَقَالَ بيت: «لَقَدْ تَحَطَّمَ الْقَالَبُ الَّذِي صِيغَ عَلَيْهِ بَعْدَ صُنْعِهِ.»

أَضَافَ هانز: «بِحَقِّ السَّمَاءِ! أَنَا أَيْضًا أَرَى ذَلِكَ.»

لَقَدْ رَاقَبُوهُ وَهُوَ يَخْرُجُ مِنَ الْمُخَيَّمِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا مَا تَغَيَّرَ بِهِ بِمُجَرَّدِ أَنِ اخْتَفَى فِي أَحْضَانِ الْغَابَةِ. فَقَدْ تَوَقَّفَ عَنِ السَّيْرِ وَأَصْبَحَ جُزْءًا مِنَ الْبَرِّيَّةِ وَهُوَ يَزْحَفُ بِهُدُوءٍ، كَانَ يَعْلَمُ كَيْفَ يَخْتَبِئُ وَيَزْحَفُ عَلَى بَطْنِهِ كَالثُّعْبَانِ، وَيَثِبُ وَيُهَاجِمُ أَيْضًا كَالثُّعْبَانِ. كَانَ يُمْكِنُهُ الْإِمسَاكُ بِالطُّيُورِ فِي أَعْشَاشِهَا، وَالْأَرَانِبِ أَثْنَاءَ نَوْمِهَا، أَوِ السَّنَاجِبِ فِي الْهَوَاءِ أَثْنَاءَ قَفْزِهَا. وَالْأَسْمَاكُ لَمْ تَكُنْ سَرِيعَةً بِمَا يَكْفِي لِتَهْرُبَ مِنْ مَخَالِبِهِ. وَفِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ، كَانَ يَسْتَمْتِعُ بِالزَّحْفِ خِلْسَةً وَرَاءَ السَّنَاجِبِ، وَبِمُجَرَّدِ أَنْ يُوشِكَ عَلَى الْإِمْسَاكِ بِهَا كَانَ يَتْرُكُهَا وَيُرَاقِبُهَا وَهِيَ تَهْرُبُ فِي خَوْفٍ مُتَسَلِّقَةً الْأَشْجَارَ.

وَمَعَ قُدُومِ فَصْلِ الْخَرِيفِ، بَدَأَ ظُهُورُ أَيَائِلِ الْمُوظِ وَهِيَ تَسِيرُ بِرَوِيَّةٍ فِي الْوَادِي. كَانَ باك قَدِ اصْطَادَ بِالْفِعْلِ أَيْلًا صَغِيرًا، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَيْلًا أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ صُعُوبَةً فِي الْإِمْسَاكِ بِهِ، وَقَدْ وَجَدَ ضَالَّتَهُ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ بِجَانِبِ الْجَدْوَلِ الصَّغِيرِ. كَانَ هُنَاكَ عِشْرُونَ مِنْ أَيَائِلِ الْمُوظِ يَسِيرُونَ هُنَاكَ، وَكَانَ قَائِدُهُمْ ذَكَرَ مُوظٍ ضَخْمًا سَيِّئَ الْمِزَاجِ، وَكَانَ طُولُهُ يَبْلُغُ

سِتَّةَ أَقْدَامٍ، وَكَانَتْ قُرُونُهُ طُولُهَا سَبْعَةُ أَقْدَامٍ، وَعِنْدَمَا رَأَى باك انْبَعَثَ الشَّرَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ، وَزَأَرَ فِي غَضَبٍ.

طَارَدَ باك أَيَائِلَ الْمُوظِ لِأَيَّامٍ، وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ، بَدَأَ يَشْعُرُ بِتَغَيُّرٍ يَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ، كَانَتْ أَشْكَالٌ أُخْرَى مِنَ الْحَيَاةِ تَبْدَأُ فِي الْخُرُوجِ، وَقَدِ اسْتَشْعَرَ ذَلِكَ فِي الْهَوَاءِ. فَلَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى شَيْئًا مُمَيَّزًا، وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنْ وَجْهَ الْأَرْضِ قَدْ تَغَيَّرَ بِصُورَةٍ مَا، وَأَنَّ كَائِنَاتٍ غَرِيبَةً تَتَجَوَّلُ هُنَاكَ. فَقَرَّرَ التَّخَلِّيَ عَنْ صَيْدِ الْمُوظِ وَتَحَرِّيَ الْأَمْرِ. بَدَأَ يَقْطَعُ طَرِيقَ الْعَوْدَةِ إِلَى الْمُخَيَّمِ وَإِلَى جون ثورنتون، فَانْطَلَقَ يَعْدُو وَيَعْدُو لِسَاعَاتٍ، وَلَمْ يَفْقِدْ طَرِيقَهُ أَبَدًا وَهُوَ يَتَّجِهُ إِلَى الكُوخِ مُبَاشَرَةً.

وَبَيْنَمَا كَانَ باك يَرْكُضُ، بَدَأَ يُدْرِكُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا جَدِيدًا، هُنَاكَ شَيْءٌ حَيٌّ مُخْتَلِفٌ عَمَّا كَانَ مَوْجُودًا فِي فَصْلِ الصَّيْفِ. إِنَّهُ شَيْءٌ تَحَدَّثَتْ عَنْهُ الطُّيُورُ، وَتَكَلَّمَتْ عَنْهُ السَّنَاجِبُ، وَكَانَ يَشَمُّهُ فِي الرِّيَاحِ. وَقَدْ تَوَقَّفَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ لِتَشَمُّمِ الْهَوَاءِ فِي الصَّبَاحِ وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ رِسَالَةً، وَقَدْ جَعَلَهُ ذَلِكَ يَرْكُضُ أَسْرَعَ، كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ شَيْئًا سَيِّئًا سيَحْدُثُ، أَوْ حَدَث بِالْفِعْلِ، وَعِنْدَمَا بَدَأَ فِي النُّزُولِ لِأَسْفَلِ الْوَادِي فِي اتِّجَاهِ الْمُخَيَّمِ بَدَأَ يَتَحَرَّكُ بِحَذَرٍ.

عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ، وَجَدَ باك آثَارًا جَدِيدَةً جَعَلَتْ شَعْرَ جَسَدِهِ يَنْتَصِبُ؛ إِذْ كَانَ الْأَثَرُ يَقُودُ مُبَاشَرَةً إِلَى مُخَيَّمِ جون ثورنتون. تَقَدَّمَ باك بِسُرْعَةٍ وَرَشَاقَةٍ وَصَمْتٍ، وَكَانَتْ كُلُّ ذَرَّةٍ فِي جَسَدِهِ مُتَحَفِّزَةً لِمَا شَعَرَ بِهِ. كَانَتْ كُلُّ الْحَيَوَانَاتِ فِي الْغَابَةِ مُخْتَبِئَةً فِي صَمْتٍ.

اتَّبَعَ رَائِحَةً جَدِيدَةً فِي شُجَيْرَةٍ، وَسَمِعَ مِنْ جِهَةِ الْمُخَيَّمِ أَصْوَاتًا عَدِيدَةً تَرْتَفِعُ وَتَنْخَفِضُ فِي غِنَاءٍ، اقْتَرَبَ باك بِبُطْءٍ وَنَظَرَ نَحْوَ مَكَانِ الكُوخِ وَرَأَى شَيْئًا جَعَلَ كُلَّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِهِ تَنْتَفِضُ.

كَانَتْ قَبِيلَةٌ مِنَ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ مَعْرُوفَةٌ بِاسْمِ «الييهاتس» يَرْقُصُونَ حَوْلَ الكُوخِ الْمُحْتَرِقِ. لَقَدْ أَقَامَ ثورنتون وَشُرَكَاؤُهُ الْمُخَيَّمَ فِي أَرْضِ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ دُونَ أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّ ذَلِكَ سَيَجْعَلُهُمْ دُخَلَاءَ. لِذَا، هَاجَمَهُمُ «الييهاتس» وَفَازُوا بِالْمَعْرَكَةِ بِسُهُولَةٍ، وَقَدْ كَانُوا يَحْتَفِلُونَ بِنَصْرِهِمْ عِنْدَمَا سَمِعُوا زَئِيرًا وَرَأَوْا حَيَوَانًا يَنْقَضُّ عَلَيْهِمُ انْقِضَاضَةً لَمْ يَرَوْا مَثِيلَهَا مِنْ قَبْلُ؛ إِنَّهُ باك الَّذِي انْقَضَّ عَلَيْهِمْ كَالْإِعْصَارِ، وَطَارَدَهُمْ بِقُوَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ التَّغَلُّبُ عَلَيْهِ. فَقَدْ كَانَ يَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ، وَكَانَ ثَائِرًا مِنَ الْغَضَبِ، فَزِعَ

أَفْرَادُ «الييهاتس» وَرَكَضُوا نَحْوَ الْغَابَةِ وَهُمْ يُلَقِّبُونَ باك بِاسْمِ «الرُّوحِ الشِّرِّيرَةِ». وَكَانَ باك يَبْدُو شِرِّيرًا حَقًّا وَهُوَ يُطَارِدُهُمْ. وَبَعْدَ مُرُورِ بَعْضِ الْوَقْتِ، عَادَ باك إِلَى الْمُخَيَّمِ الَّذِي كَانَ قَدْ دُمِّرَ تَمَامًا، كَانَ الرِّجَالُ وَالْكِلَابُ قَدْ رَحَلُوا، وَكَانَ بِإِمْكَانِ باك شَمُّ الْمَوْقِعِ الَّذِي قَاتَلَ فِيهِ ثورنتون وَخَسِرَ.

طَافَ باك حَوْلَ الْمُخَيَّمِ طَوَالَ الْيَوْمِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَاذَا يَفْعَلُ، كَانَ يَعْلَمُ فَقَطْ أَنَّ جون ثورنتون قَدْ رَحَلَ تَارِكًا بِدَاخِلِهِ خَوَاءً مِثْلَ الْجُوعِ أَخَذَ يُؤْلِمُهُ وَيُؤْلِمُهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الطَّعَامَ لَنْ يَمْلَأَ هَذَا الْخَوَاءَ.

فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، كَانَ يَشْعُر بِالْفَخْرِ لِأَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ طَرْدِ الرِّجَالِ الَّذِينَ اقْتَحَمُوا الْمُخَيَّمَ؛ لَقَدْ طَارَدَ الرِّجَالَ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ الْأَمْرَ أَسْهَلُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي طَارَدَهَا، فَالْبَشَرُ لَا يُمَثِّلُونَ خَطَرًا إِلَّا عِنْدَمَا يَحْمِلُونَ الْأَسْلِحَةَ فَقَطْ. وَمِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا، لَنْ يَشْعُرَ بِالْخَوْفِ مِنَ الْبَشَرِ أَبَدًا إِلَّا إِذَا كَانُوا يَحْمِلُونَ الْحِبَالَ أَوِ السِّهَامَ أَوِ الْمُسَدَّسَاتِ.

وَفِي اللَّيْلِ، سَطَعَ الْقَمَرُ بَدْرًا فَوْقَ الْأَشْجَارِ، وَبَيْنَمَا كَانَ باك يَسْتَلْقِي حَزِينًا بِجَانِبِ الْمِيَاهِ، شَعَرَ بِشَيْءٍ آخَرَ يَتَحَرَّكُ فِي الْغَابَةِ. هَبَّ باك وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ يُنْصِتُ السَّمْعَ وَيَشُمُّ الْهَوَاءَ. وَمِنْ بَعِيدٍ سَمِعَ صَوْتَ عُوَاءٍ خَافِتٍ وَتَبِعَهُ الْمَزِيدُ مِنْ أَصْوَاتِ الْعُوَاءِ، ثُمَّ غَدَا الصَّوْتُ أَقْرَبَ وَأَعْلَى. كَانَ ذَلِكَ نِدَاءً آخَرَ، وَهَذِهِ الْمَرَّةَ كَانَ باك مُسْتَعِدًّا لِتَلْبِيَتِهِ؛ فَقَدْ رَحَلَ جون ثورنتون، وَلَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مَا يَرْبِطُ باك بِعَالَمِ الْبَشَرِ.

دَخَلَ قَطِيعٌ مِنَ الذِّئَابِ إِلَى الْمِنْطَقَةِ، وَوَقَفَ باك فِي مُنْتَصَفِ الْمَكَانِ يَنْتَظِرُهُمْ. وَقَدِ اعْتَرَتِ الْقَطِيعَ الدَّهْشَةُ، فَقَدْ كَانَ باك ضَخْمًا جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُمْ وَقَفُوا لِلَحْظَةٍ وَأَخَذُوا يُحَدِّقُونَ فِيهِ. ثُمَّ انْقَضَّ الْأَشْجَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى باك، وَبِسُرْعَةِ الْبَرْقِ قَاتَلَ باك، ثُمَّ حَاوَلَ الْمَزِيدُ مِنْهُمْ مُهَاجَمَتَهُ وَلَكِنَّهُ قَاتَلَهُمْ جَمِيعًا.

لَقدْ قَاتَلَ بِبَرَاعَةٍ، حَتَّى إِنَّ الذِّئَابَ تَرَاجَعَتْ بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ، لَقَدْ كَانُوا مُتْعَبِينَ وَمُصَابِينَ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْتَلْقِي وَالْبَعْضُ الآخَرُ وَقَفَ يُشَاهِدُ باك وَآخَرُونَ يَشْرَبُونَ مِنَ الْمِيَاهِ. ثُمَّ تَقَدَّمَ أَحَدُ الذِّئَابِ — طَوِيلٌ وَمَمْشُوقُ الْقَوَامِ وَرَمَادِيُّ اللَّوْنِ — تِجَاهَ باك بِحَذَرٍ وَبِطَرِيقَةٍ وَدُودَةٍ وَتَعَرَّفَ باك عَلَيْهِ؛ فَقَدْ كَانَ هُوَ الذِّئْبُ الَّذِي قَابَلَهُ مِنْ قَبْلُ. كَانَ الذِّئْبُ يَعْوِي بِرِفْقٍ، فَأَجَابَهُ باك بِعُوَاءٍ مُمَاثِلٍ، ثُمَّ تَلَامَسَ أَنْفَاهُمَا فِي رِفْقٍ، ثُمَّ تَقَدَّمَ ذِئْبٌ عَجُوزٌ — نَحِيفُ الْبِنْيَةِ وَلَدَيْهِ نُدُوبٌ مِنَ الْمَعَارِكِ — وَتَشَمَّمَ باك أَنْفَهُ أَيْضًا، ثُمَّ جَلَسَ

الذِّئْبُ الْكَبِيرُ وَوَجَّهُ أَنْفَهُ نَحْوَ الْقَمَرِ وَأَطْلَقَ عُواءً طَوِيلًا، فَتَبِعَهُ الْآخَرُونَ وَأَطْلَقُوا عُواءً مُمَاثِلًا. وَالْآنَ جَاءَ النِّدَاءُ لِباك أَيْضًا، فَجَلَسَ وَعَوَى مَعَهُمْ. بَعْدَ ذَلِكَ، تَجَمَّعَ الْقَطِيعُ حَوْلَ باك وَأَخَذُوا يَتَشَمَّمُونَهُ بِطَرِيقَةٍ وَدُودَةٍ وَشِبْهِ هَمَجِيَّةٍ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ. حَمَلَ قَادَةُ الذِّئَابِ الصِّغَارَ وَرَكَضُوا نَحْوَ الْغَابَةِ، وَتَبِعَهُمُ الْبَقِيَّةُ وَهُمْ يَعْوُونَ مَعًا، وَرَكَضَ باك مَعَهُمْ بِجَانِبِ صَدِيقِهِ الْبَرِّيِّ وَهُوَ يَعْوِي هُوَ الْآخَرُ.

وَهُنَا تَنْتَهِي قِصَّةُ باك، بَعْدَ أَنِ اخْتَفَى مِنْ دَاخِلِهِ — قَبْلَ وَقْتٍ طَوِيلٍ — ذَلِكَ الْكَلْبُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّابِقِ يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنَ الاسْتِلْقَاءِ فِي الشَّمْسِ فِي مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر الْكَبِيرِ فِي وَادِي سانت كلارا الْخَصْبِ.

وَلَكِنْ فِي السَّنَوَاتِ التَّالِيَةِ، لَاحَظَ «الييهاتس» تَغَيُّرًا فِي الذِّئَابِ، فَأَصْبَحَ لَدَى الْبَعْضِ مِنْهَا الْآنَ لَطْخًا مِنَ اللَّوْنِ الْبُنِّيِّ عَلَى رُءُوسِهَا وَأُنُوفِهَا، أَوْ رُقَعًا بَيْضَاءَ عَلَى صُدُورِهَا. كَمَا رَوَى «الييهاتس» قِصَصًا أَيْضًا عَنِ الْكَلبِ الشَّبَحِ الَّذِي يَقُودُ الْقَطِيعَ، وَكَانُوا يَخَافُونَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلْبِ الشَّبَحِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَذْكَى مِنْ أَيِّ حَيَوَانٍ أَوْ إِنْسَانٍ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ السَّرِقَةُ مِنْ مُخَيَّمَاتِهِمْ وَمِنْ مَصَائِدِهِمْ وَالْهُرُوبُ مِنْ أَفْضَلِ صَيَّادِيهِمْ.

وَكُلَّ خَرِيفٍ، بَيْنَمَا يَتَنَقَّلُ «الييهاتس» عَبْرَ مِنْطَقَتِهِمْ، كَانَ هُنَاكَ وَادِي لَا يَدْخُلُونَهُ أَبَدًا. وَكَانُوا يَرْوُونَ قِصَصًا حَزِينَةً عَنِ الرُّوحِ الشِّرِّيرَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي أَحَدِ الْأَعْوَامِ وَقَرَّرَتِ الْعَيْشَ فِي هَذَا الْوَادِي.

وَفِي فُصُولِ الصَّيْفِ، كَانَ هُنَاكَ حَيَوَانٌ وَاحِدٌ يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي؛ إِنَّهُ ذِئْبٌ عَظِيمٌ، أَضْخَمُ مِنْ أَيِّ ذِئْبٍ آخَرَ. كَانَ يَعْبُرُ الْغَابَةَ وَيَهْبِطُ إِلَى أَرْضٍ مَفْتُوحَةٍ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، وَهُنَاكَ يُوجَدُ غُبَارٌ أَصْفَرُ وَأَحْجَارٌ صَفْرَاءُ مُلْقَاةٌ عَلَى الْأَرْضِ حَوْلَ أَكْيَاسٍ قَدِيمَةٍ مُمَزَّقَةٍ تَنْمُو حَوْلَهَا الْأَعْشَابُ الطَّوِيلَةُ وَتُغَطِّيهَا. وَهُنَاكَ يَقْضِي الذِّئْبُ الْعَظِيمُ بَعْضَ الْوَقْتِ فِي تَفْكِيرٍ وَرِثَاءٍ ثُمَّ يُطْلِقُ عُوَاءً طَوِيلًا وَحَزِينًا، ثُمَّ يَرْحَلُ.

وَلَكِنَّهُ لَيْسَ وَحِيدًا دَائِمًا؛ فَعِنْدَمَا تَأْتِي لَيَالِي الشِّتَاءِ الْبَارِدَةُ الطَّوِيلَةُ وَتَتْبَعُ الذِّئَابُ فَرَائِسَهَا إِلَى الْأَوْدِيَةِ، يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ وَهُوَ يَرْكُضُ مُتَصَدِّرًا الْقَطِيعَ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ، وَيَقْفِزُ أَعْلَى مِنَ الذِّئَابِ الْأُخْرَى، وَيَنْطَلِقُ الْعُوَاءُ مِنْ حَلْقِهِ وَهُوَ يُغَنِّي أُنْشُودَةَ الْقَطِيعِ.